الطغيان والطواغيت

في ظلال القرآن

للشهيد سيد قطب



أعده وخرج أحاديثه وقدم له

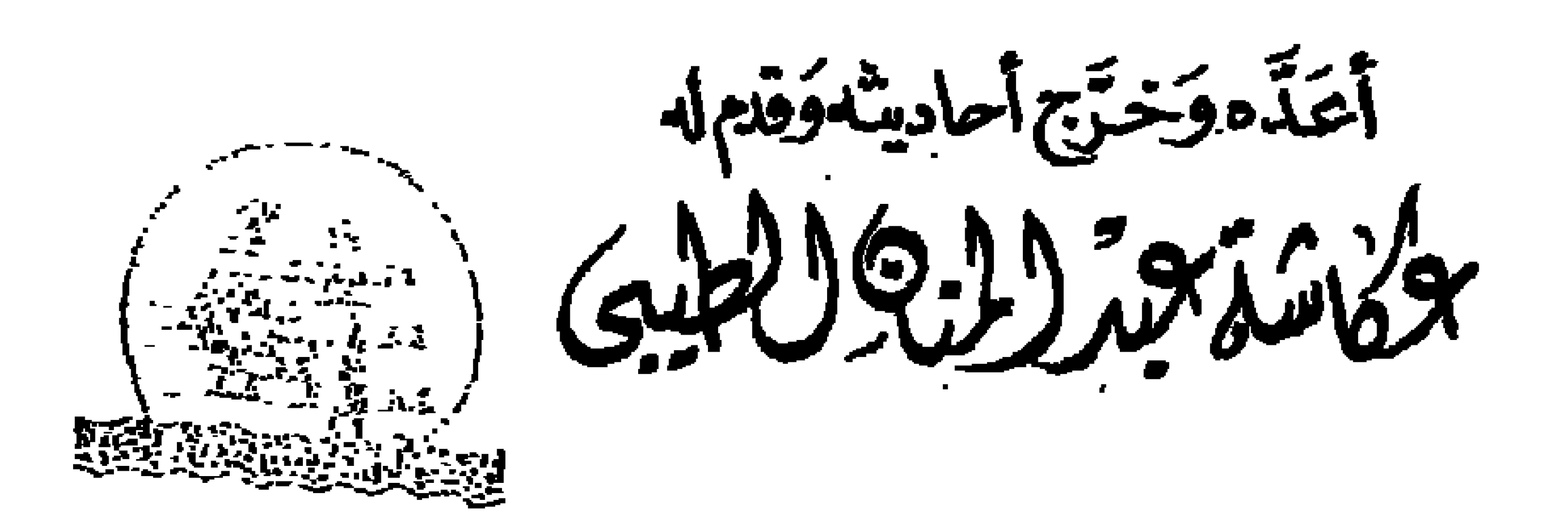
عكاشة عبد المنان الطيبي

دار الفضيلة

الطغيان والطواغيت في ظلال القرآن

للشهيد سيد قطب

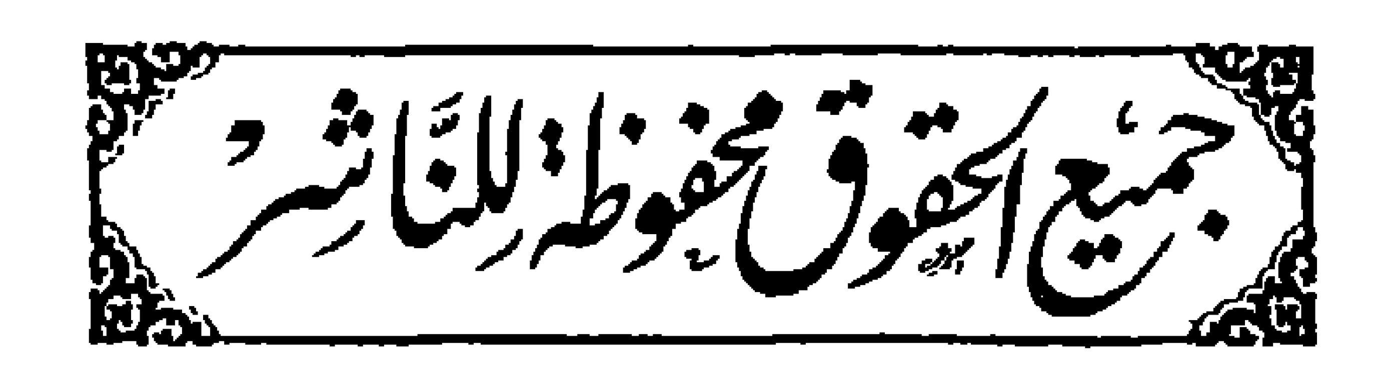
أعدّه وخرّج أحاديثه وقدم له
عكاشة عبد المنان الطيبي



دار الفضيلة

دار الفضيلة
للنشر والتوزيع والتصدير

الإدارة: القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي -
كلية البنات - مصر الجديدة - ت وفاكس ٦٦٢٢٢٢٢
المكتبة: ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة - ت ٣٩٠٩٢٣١
الإمارات: دبي - ديرة - ص ب ١٥٧٦٥ ت ٦٩٤٩٦٨ فاكس ٦٢١٢٧٦



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

۝ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝ لِّلطَّٰغِينَ
مَـَٔابًا ۝ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝ لَّا يَذُوقُونَ
فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا
۝ جَزَآءً وِفَاقًا ۝ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ
حِسَابًا ۝ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ۝ وَكُلَّ شَىْءٍ
أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ۝ فَذُوقُوا۟ فَلَن
نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝

صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلْعَظِيمُ

سورة النبأ من ٢١ - ٣٠

من هو الطاغوت ؟

... إنَ الطَاغوت هو كُلّ سُلطان لا يُستمدُ من سلطان الله ، وكلّ حُكم لا يقوم على شريعة الله ، وكل عدوان يتجاوز الحق .. والعدوان على سُلطان الله وألوهيته وحاكميته ، وهو أشنَعُ العدوان وأشده طغيانا ، وأدخله فى معنى الطاغوت لفظاً ومعنى ...

والطاغوت : صيغة من الطغيان ، تفيد كل ما يطغى على الوعى ، ويجور على الحق ، ويتجاوز الحدود التى رسمها الله للعباد ، ولا يكون له ضابط من العقيدة فى الله ، ومن الشريعة التى يسنها الله ، ومنه كل منهج غير مُستَمَدٍ من الله ، وكل تصَوُّرٍ أو وضعٍ أو أدبٍ أو تقليدٍ لا يُستَمَدُ من الله ، فمَنْ يَكْفُر بهذا كله فى كل صورة من صوره ويؤمن بالله وحده ويستمد من الله وحده فقد نجا .. وتتمثل نجاته فى استمساكه بالعروة الوثقى لا انْفِصَامَ لها .

سَيِّد قطب

المقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلّا الله ، وأن محمداً رسول الله .

وبعد :

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله :

عشت فى ظلال القرآن أنظُرُ مِنْ عُلو إلى الجاهلية التى تموج فى الأرض ، وإلى اهتمامات أهلها الصغيرة الهزيلة .. أنظر إلى تعاجب أهل هذه الجاهلية بما لديهم من معرفة الأطفال ، وتصورات الأطفال ، واهتمامات الأطفال .. كما ينظر الكبير إلى عبث الأطفال ، ومحاولات الأطفال ، ولثغة[1] الأطفال وأعجب .. ما بال هؤلاء الناس ! ما بالهم يرتكسون فى الحمأة الوبيئة ، ولا يسمعون النداء العلوى الجليل ، النداء الذى يرفع العمر ويباركه ويزكيه ؟ .

عشت أتملى فى ظلال القرآن ذلك التصور الكامل الشامل الرفيع النظيف للوجود .. لغاية الوجود كله ، وغاية الوجود الإنسانى ، وأقيس إليه تصورات الجاهلية التى تعيش فيها البشرية ، فى شرق وغرب ، وفى شمال وجنوب ، وأسأل كيف تعيش البشرية فى المستنقع الآسن[2]، وفى الدرك الهابط، وفى الظلام البهيم وعندها ذلك المرتع الزكى ، وذلك المرتقى العالى ، وذلك النور الوضىء ؟ .

عشت فى ظلال القرآن أَحُسُ التناسق الجميل بين حركة الإنسان كما يريدها الله ، وحركة هذا الكون الذى أبدعه الله ، ثُمُ أنظر ، فأرى التخبُط الذى تعانيه البشرية فى انحرافها عن السُنَنِ الكونية ، والتصادم بين التعاليم الفاسدة الشّريرة التى تُملى عليها وبين فطرتها التى فطرها الله عليها ، وأقول فى نفسى : أى شيطان لئيم هذا الذى يقود خطاها إلى هذا الجحيم ؟ .

عشت فى ظلال القرآن أرى الوجود أكبر بكثير من ظاهره المشهود أكبر فى حقيقته ، وأكبر فى تَعَدُدِ جوانبه ، إنه عالم الغيب والشهادة لا

---

(١) لثغة : تحول اللسان من حرف إلى حرف ، كقلب السين ثاء ، أو الراء غينًا .

(٢) الآسن : أَسِنَ الماء والهواء – أسَنًا : تغير وفسد .

عالم الشهادة وحده ، وإنه الدنيا و الآخرة ، لا هذه الدنيا وحدها ، والنشأة الإنسانية ممتدة فى شعاب هذا المدى المتطاول ، والموت ليس نهاية الرحلة وإنما هو مرحلة فى الطريق ، وما يناله الإنسان من شىء فى هذه الأرض ليس نصيبه كله ، إنما هو قسط من ذلك النصيب ، وما يفوته هنا من الجزاء لا يفوته هناك ، فلا ظُلْمَ ولا بَخس ولا ضَيَاعَ ، على أن المرحلة التى يقطعها على ظهر هذا الكوكب إنما هى رحلة فى كون حيٍّمَأنوس ، وعالم صديق ودود ، كون ذى روح تتلقى وتستجيب ، وتتجه إلى الخالق الواحد الذى تتجه إليه روح المؤمن فى خشوع : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى السَّمَوٰاتِ والأَرْضِ طَوعاً وكرهاً وَظِلالهم بالغُدو والآصَالِ ﴾[1] ﴿ تُسَبِّحُ له السَّمٰوات السَّبْعُ والأَرض ومن فيهن وإن مِن شىء إلّا يُسَبِّحُ بحمده ﴾[2].. أى راحة ، وأى سعة وأى أنس ، وأى ثقة يفيضها على القلب هذا التصور الشامل الكامل الفسيح الصحيح ؟ .

عشت فى ظلال القرآن أرى الإنسان أكرم بكثير من كل تقدير عرفته البشرية من قبل للإنسان ومن بعد .. إنه إنسان بنفخة من روح الله : ﴿ وإذْ قال ربك لِلملائكةِ إنّى جاعلٌ فى الأرضِ خليفةً ﴾[3] ومسخر له كل مافى الأرض : ﴿ وَسَخَّر لكم مافى السموات ومافى الأرْضِ جميعاً ﴾[4] ولأن الإنسان بهذا القدر من الكرامة والسمو جعل الله الآصرة التى يتجمع عليها البشر هى الآصرة المستمدة من النفخة الإلهية الكريمة ، جعلها آصرة العقيدة فى الله .. فعقيدة المؤمن هى وطنه ، وهى قومه ، وهى أهله .. ومن ثم يتجمع البشر عليها وحدها ، لا على أمثال ما تتجمع عليه البهائم من كلأ ومرعى وقطيع وسياج ..

والمؤمن ذو نسب عريق ، ضارب فى شعاب الزمان ، إنه واحد من ذلك الموكب الكريم ، الذى يقود خطاه ذلك الرهط الكريم : نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، ويعقوب ويوسف ، وموسى وعيسى ، ومحمد عليهم الصلاة والسلام .. ﴿ إنَّ هذه أمتكم أمة واحدةً وأنا ربكم فاتقون ﴾[5].

هذا الموكب الكريم ، الممتد فى شعاب الزمان من قديم ، يواجه كما يتجلى فى ظلال القرآن مواقف متشابهة ، وأزمات متشابهة ، وتجارب متشابهة على تطاول العصور وكر الدهور ، وتغير المكان ، وتعدد الأقوام ، يواجه الضلال والعمى والطغيان والهوى ، والاضطهاد والبغى ،

---

(١) الرعد : ١٥ . (٢) الإسراء : ٤٤ . (٣) البقرة : ٣٠ .
(٤) الجاثية : ١٣ . (٥) المؤمنون : ٥٢ .

والتهديد والتشريد ، ولكنه يمضى فى طريقه ثابت الخطو ، مطمئن الضمير ، واثقاً من نصر الله ، متعلقاً بالرجاء فيه ، متوقعاً فى كل لحظة وعد الله الصادق الأكيد : ﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم لنُخرجَنَّكُم من أرضنا أو لَتَعُودُنَّ فى ملتنا فأوحى إليهم رَبُّهم لنُهْلكنَ الظالمين * ولَنُسْكِننَّكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد ﴾[1].. موقف واحد وتجربة واحدة ، وتهديد واحد ، ويقين واحد ، ووعد واحد للموكب الكريم .. وعاقبة واحدة ينتظرها المؤمنون فى نهاية المطاف ، وهم يتلقون الاضطهاد والتهديد والوعيد .

... انتهيت من فترة الحياة فى ظلال القرآن إلى يقين جازم حاسم .. إنه لا صلاح لهذه الأرض ، ولا راحة لهذه البشرية ، ولا طمأنينة لهذا الإنسان ، ولا رفعة ولا بركة ولا طهارة ، ولا تناسق مع سُنَنِ الكون وفِطْرة الحياة إلّا بالرجوع إلى الله ..

والرجوع إلى الله كما يتجلى فى ظلال القرآن له صورة واحدة وطريق واحد .. واحد لاسواه .. إنه العودة بالحياة كلها إلى منهج الله الذى رسمه للبشرية فى كتابه الكريم .. إنه تحكيم هذا الكتاب وحده فى حياتها ، والتحاكم إليه وحده فى شئونها ، وإلا فهو الفساد فى الأرض ، والشقاوة للناس ، والارتكاس فى الحمأة ، والجاهلية التى تعبد الهوى من دون الله : ﴿ فإن لم يَسْتجيبُوا لَكَ فاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُون أهْوَاءهم وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن اتبع هواه بغير هُدى من الله إن الله لا يهدى القومَ الظالمين ﴾[2]..

إن الاحتكام إلى منهج الله فى كتابه ليس نافلة ولا تطوعاً ولا موضع اختيار ، إنما هو الإيمان .. أو .. فلا إيمان .. ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنةٍ إذا قَضَى اللهُ ورسُولُهُ أمراً أن يكون لهم الخيرةُ من أمرهم ﴾[3] ﴿ ثم جَعَلْناك على شريعةٍ من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون * إنهم لن يُغْنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمينَ بعضُهُم أولياءُ بعضٍ واللهُ ولىُّ المتقين ﴾[4]..

والأمر إذن جَدٌّ .. إنه أمر العقيدة من أساسها .. ثم هو أمر سعادة هذه البشرية أو شقائها ..

إن هذه البشرية وهى صنع الله لا تفتح مخاليق فطرتها إلّا بمفاتيح من صنع الله ، ولا تعالج أمراضها وعللها إلّا بالدواء الذى يخرج من يده

---

(١) إبراهيم : ١٣ – ١٤ .

(٢) القصص : ٥٠ . (٣) الأحزاب : ٣٦ . (٤) الجاثية : ١٨ – ١٩ .

سبحانه وقد جعل فى منهجه وحده مفاتيح كل مغلق ، وشفاء كل داء : ﴿ وَنُنَزِّلُ من القرآنِ ماهو شِفَاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين ﴾[1].. ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقومُ ﴾[2].. ولكن هذه البشرية لا تريد أن ترد القفل إلى صانعه ، ولا أن تذهب بالمريض إلى مبدعه ، ولا تسلك فى أمر نفسها ، وفى أمر إنسانيتها ، وفى أمر سعادتها أو شقوتها .. ما تعودت أن تسلكه فى أمر الأجهزة والآلات المادية الزهيدة التى تستخدمها فى حاجاتها اليومية الصغيرة .. وهى تعلم أنها تستدعى لإصلاح الجهاز مهندس المصنع الذى صنع الجهاز ، ولكنها لا تُطَبِّق هذه القاعدة على الإنسان نفسه ، فترده إلى المصنع الذى منه خرج ، ولا أن تستفتى المبدع الذى أنشأ هذا الجهاز العجيب ، الجهاز الإنسانى العظيم الكريم الدقيق اللطيف ، الذى لا يعلم مساربه ومداخله إلا الذى أبدعه وأنشأه : ﴿ إنه عليم بذات الصدور * ألا يعلمُ من خلَقَ وهُوَ اللطيفُ الخبيرُ ﴾[3].

ومن هنا جاءت الشقوة للبشرية الضالة ، البشرية المسكينة الحائرة ، البشرية التى لن تجد المرشد ، ولن تجد الهدى ، ولن تجد الراحة ، ولن تجد السعادة ، إلا حين ترد الفطرة البشرية إلى صانعها الكبير ، كما ترد الجهاز الزهيد إلى صانعه الصغير ! .

ولقد كانت تنحية الإسلام عن قيادة البشرية حدثاً هائلاً فى تاريخها ، ونكبة قاصمة فى حياتها ، نكبة لم تعرف لها البشرية نظيراً فى كل ما ألَمَّ بها من نكبات ..

لقد كان الإسلام قد تسلم القيادة بعد ما فسدت الأرض ، وأسِنت[4] الحياة ، وتعفنت القيادة ، وذاقت البشرية الويلات من القيادات المتعفنة ، و ﴿ ظَهَرَ الفَسَادُ فى البَرِّ والبَحْرِ بما كسبتْ أيدى النَّاس ﴾[5]..

تسلم الإسلام القيادة بهذا القرآن ، وبالتصور الجديد الذى جاء به القرآن ، وبالشريعة المستمدة من هذا التصور .. فكان ذلك مولداً جديداً للإنسان أعظم فى حقيقته من المولد الذى كانت به نشأته ، لقد أنشأ هذا القرآن للبشرية تصوراً جديداً عن الوجود والحياة والقيم والنظم ، كما حقق لها واقعاً اجتماعياً فريداً ، كان يعز على خيالها تصوره مجرد تصور ، قبل أن ينشئه لها القرآن إنشاءً .. نعم ! لقد كان هذا الواقع من النظافة والجمال ، والعظمة والارتفاع ، والبساطة واليسر ، والواقعية

---

(1) الإسراء : ٨٢ .
(2) الإسراء : ٩ .
(3) الملك : ١٣ - ١٤ .
(4) أسنت : تغيرت لطول المكث .
(5) الروم : ٤١ .

والإيجابية ، والتوازن والتناسق .. بحيث لا يخطر للبشرية على بال ، لولا أن الله أراده لها ، وحققه في حياتها .. في ظلال القرآن ، ومنهج القرآن ، وشريعة القرآن .

ثم وقعت تلك النكبة القاصمة ، ونُحِّيَ الإسلام عن القيادة ، نحى عنها لتتولاها الجاهلية مرة أخرى ، في صورة من صورها الكثيرة ، صورة التفكير المادى الذى تتعاجب به البشرية اليوم ، كما يتعاجب الأطفال بالثوب المُبَرْقَشُ ، واللعبة الزاهية الألوان ! .

إن هناك عصابة من المضللين الخادعين أعداء البشرية .. يضعون لها المنهج الإلهى فى كِفَّةِ والإبداع الإنسانى فى عالم المادة فى الكِفَّةِ الأخرى ثم يقولون لها : اختارى !! اختارى إما المنهج الإلهى فى الحياة والتخلى عن كل ما أبدعته يد الإنسان فى عالم المادة ، وإما الأخذ بثمار المعرفة الإنسانية والتخلى عن منهج الله !! وهذا خداع لئيم خبيث ، فوضْعُ المسألة ليس هكذا أبداً .. إن المنهج الإلهى ليس عدواً للإبداع الإنسانى ، إنما هو منشئ لهذا الإبداع وَمُوَجِّه له الوجهة الصحيحة .. ذلك كى ينهض الإنسان بمقام الخِلافة فى الأرض ، هذا المقام الذى منحه الله له ، وأقدره عليه ، ووهبه من الطاقات المكونة مما يكافئ الواجب المفروض عليه فيه ، وسخَّر له من القوانين الكونية ما يعينه على تحقيقه ، ونسَّق بين تكوينه وتكوين هذا الكون ليملك الحياة والعمل والإبداع .. على أن يكون الإبداع نفسه عبادة لله ، ووسيلة من وسائل شكره على آلائه العظام ، والتقيد بشرطه فى عقد الخلافة ، وهو أن يعمل ويتحرك فى نطاق ما يرضى الله ، فأمّا أولئك الذين يضعون المنهج الإلهى فى كفة ، الإبداع الإنسانى فى عالم المادة فى الكفّة الأخرى .. فهم سيئو النية ، شريرون ، يطاردون البشرية المتعبة الحائرة كلما تعبت من التية والحيرة والضلال ، وهمت أن تسمع لصوت الحادى الناصح ، وأن تتوب من المتاهة المهلكة . وأن تطمئن إلى كنف الله ... اهـ

إن سيد قطب رحمه الله أحد أولئك المجددين الذين نادوا بإقامة الإسلام على الأرض بأعلى صوته متحدياً تلك الماديات الباطلة والمنحرفة ، مواجهاً بذلك تلك المصاعب التى أدت إلى إعدامه فيما بعدُ ، هذا والله لا يكون إلا فى رجل أخلص لله ، وجاهد فى سبيل الله ، وأحب فى الله ، وأبغض فى الله ، رحمه الله وجزاه الله كل خير .

أما عملى فى هذا الكتاب :

فقد اعتنيت بهذه الموضوعات المُستلّةُ من كتابه ، فَأتيْتُ بها على

أحسن صورة ، ووزعتها توزيعاً حسناً ، وأكثرت من العناوين الفرعية التى تُساعد القارئ على فهم المادة التى يُلقيها سيد قطب رحمه الله .. واعتنيت بتخريج أحاديثه تخريجاً علمياً دقيقاً .. وقدمت له وعملت على فهرسته ...

وأخيراً .. أدعو الله أن يتقبل هذا العمل ، ويأجرنا عليه فى الآخرة ، والله يلهمنا الصواب والسداد فى هذا العمل .. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

عكاشة عبد المنان الطيبى

الطغيان والطواغيت فى اللغة

طغا .. يطغو .. طَغْواً : جاوز الحد ..

أطغاه : جعله طاغياً ..

الطاغوت : كل متعد للحدود ، والشيطان ، والأصنام ، والكلمة تستعمل للواحد والجمع ، جمعها طواغيت ..

طغى : يَطْغى طغياناً ، لغة فى طغا ..

الطاغية : الجبار والأحمق .

وقد وردت هذه الألفاظ فى سور كثيرة من كتاب الله[1]:

قال تعالى :

﴿ إنَّا لمَّا طَغَا الماءُ حملناكُم فى الجَارِيَة ﴾[2].

أى : لما تجاوز حده المعروف ، يعنى الطوفان ..

وقال تعالى :

﴿ ما زاغَ البَصَرُ وما طغى ﴾[3].

أى : ما مال بصر محمد عما رأى ولا جاوز ما أُمر به فطغى .

وقال تعالى :

---

(١) وقد ورد اللفظ أيضاً فى سورة النازعات : ٣٧ – ٣٨ فى قوله : ﴿ فأما من طغى * وآثر الحياة الدنيا ﴾ وهود : ٨٢ فى قوله : ﴿ فاستقِم كَمَا أُمِرْت ومن تاب معك ولا فَطْغوا ﴾ وطه : ٨١ فى قوله : ﴿ ولا تطْغوا فيهِ فيحِلَّ عَلَيكُم غضَبى ﴾ والرحمٰن : ٨ فى قوله : ﴿ ألَّا تطْغوا فى الميزَان ﴾ وطه : ٤٥ فى قوله : ﴿ قالا رَّبنا إنَّنا نخافُ أن يَفْرُطَ علينا أو أن يَطْغى ﴾ والعلق : ٦ فى قوله : ﴿ كلَّا إنَّ الإنسانَ ليطْغى ﴾ وقّ : ٢٧ فى قوله : ﴿ قالَ قَرِينُهُ ربَّنا ما أطغيتُهُ ولكن كان فى ضلالٍ بعيد ﴾ والذاريات : ٥٣ فى قوله : ﴿ أتوَصوا به بَل هُم قومٌ طاغون ﴾ وصّ : ٥٥ فى قوله : ﴿ هذا وإنَّ للطاغين لشرَّ مآب ﴾ والبقرة : ٢٥٦ فى قوله : ﴿ فَمَن يكفُر بالطَّاغوتِ ويؤمِن بالله فقد استمْسك بالعروة الوثقَى ﴾ .. وغيرها كثير فى آيات القرآن الكريم .

(٢) الحاقة : ١١ . (٣) النجم : ١٧ .

﴿ اذهبْ إلى فِرْعوْن إنّه طغى ﴾[1].
﴿ اذهبا إلى فرعون إنّه طغى ﴾[2].
﴿ وفرعونَ ذِى الأوتاد الذين طغوا فى البلاد ﴾[3].
أى : تجاوز قدره وتمرد على ربه ..

﴿ قالا ربّنا إنّنا نخافُ أن يفْرُط علينا أو أن يطغى ﴾[4]

والفرط هو التسرع بالأذى للوهلة الأولى ، والطغيان أشمل من التسرع وأشمل من الأذى ، وفرعون الجبار يومئذ لا يتحرج من أحدهما أو كليهما .
وقال تعالى :

﴿ وقوم نوحٍ من قبْل إنهم كانُوا هُم أظلم وأطْغى ﴾[5].

أى : أعظم كفراً بربهم وأشد تمرداً ..
وقال تعالى :

﴿ اللهُ يستهزِئُ بهِم ويمُدُّهُم فى طُغيانِهم يعْمهُون ﴾[6].
﴿ ونُقَلِّبُ أفئِدتَهُم وأبصارَهُم كمَا لمْ يؤمنُوا به أوّلَ مرّةٍ ونذرُهُم فى طُغيانهم يعمهُون ﴾[7].
﴿ من يُضلِلِ اللهُ فلا هادِىَ لهُ ويذرُهُم فى طغيانِهم يعمهُون ﴾[8].
﴿ فنذرُ الذين لا يرجُونَ لقاءَنا فى طغيانِهم يعمهون ﴾[9].
﴿ ولو رحمنَاهُم وكشفنَا ما بِهم من ضُرٍّ لَلَجُّوا فى طغيانهم يعمهون ﴾[10].

كما وردت هذه الألفاظ فى أحاديث كثيرة نذكر منها على سبيل المثال لا للحصر ..

---

(١) طه : ٢٤ ، النازعات : ١٧ .
(٢) طه : ٤٣ .　(٣) الفجر : ١٠ – ١١ .　(٤) طه : ٤٥ .
(٥) النجم : ٥٢ .　(٦) البقرة : ١٥ .　(٧) الأنعام : ١١٠ .
(٨) الأعراف : ١٨٦ .　(٩) يونس : ١١ .　(١٠) المؤمنون : ٧٥ .

عن ميمونة بنت كردم قالت : كنت رِدْف[1] أبى فسمعته يسأل النبى (ﷺ) فقال : يارسول الله ، إنى نذرت أن أنحر ببوانة فقال : « أَبِهَا وَثَنٌ أَمْ طاغِية ؟ » فقال : لا . قال : « أوف بنذرك »[2].

وعن عروة عن عائشة قال : قلت : أرأيت قول الله عز وجل : ﴿ **إنَّ الصَّفَا والمروَةَ من شعائِرِ اللهِ فمن حجَّ البيتَ أو اعتمرَ فلا جناحَ عليهِ أن يَطَّوَّفَ بهما** ﴾[3]. قال : فقلت : فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوّف بهما . فقالت عائشة بئسماً قلت يابن أختى ، إنها لو كانت عَلىّ ما أَوَّلْتَهـا ، كانت فلا جناح عليه أن لا يطوّف بهما ولكنها إنما أُنْزِلَت لأن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية التى كانوا يعبدون عند المشلل وكان من أَهَلّ لها تحرج أن يطوف بالصفا والمروة فسألوا عن ذلك رسول الله (ﷺ) فقالوا : يارسول الله أنا كنا نتحرج أن نطوّف بالصفا والمروة فى الجاهلية فأنزل الله عز وجل : ﴿ **إنَّ الصَّفَا والمروَةَ من شعائِرِ اللهِ** ﴾ — إلى قوله تعالى — ﴿ **فلا جناحَ عليهِ أن يطَّوَّفَ بهما** ﴾ قالت عائشة : ثُمّ قَدْ سَنّ رسول (ﷺ) الطواف بهما فليس ينبغى لأحد أن يدع الطواف بهما »[4].

وعن عبد الرحمٰن بن سمرة عن النبى (ﷺ) قال : « لا تحلفوا بآبائكم ولا بالطواغيت » وقال يزيد : « والطواغى »[5].

وعن أبى هريرة قال : قال الناس : يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال النبى (ﷺ) : « هل تضارون فى الشمس ليس دونها سحاب » قالوا : لا يارسول الله . فقال : « هل تضارون فى القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب » فقالوا : لا يارسول الله ، قال : « فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك ، يجمع الله الناس فيقول : من كان يعبد شيئاً فيتبعه ، فيتبع من كان يعبد القمر

---

(١) ردف : أى خلْفَهُ على الدابة التى يركبها . (٢) أخرجه الإمام أحمد ٦/٣٦٦ .

(٣) البقرة : ١٥٨ . (٤) أخرجه الإمام أحمد ٦/١٤٤و ٢٧٧

(٥) أخرجه الإمام أحمد ٥/٦٢ ، والنَّسائى (الإيمان والنذور) ب ١٠ والبيهقى ١٠/٢٩ .

وأخرجه بلفظ : « لا تحلفوا بالطواغى ولا بآبائكم» مسلم (الإيمان) ب ٢ رقم ٦ ، وابن ماجه (٢٠٩٥) ، و «مشكاة المصابيح» (٣٤٠٨) ..

وأخرجه بلفظ : «لا تحلفوا بالطواغيت» عبد الرزاق (١٥٩٣٦) والطبرانى ٧/٣٠٥ : و « مجمع الزوائد» ٤/١٧٧ ، و « الإتحاف» ٧/٥٧٦ ، و «الكنز» (٤٦٣٤٤) و(٤٦٣٤٦) .

القمر ، ومن كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله عز وجل فى غير الصورة التى تعرفون .. الحديث »[1]..

الكفر بالطاغوت والإيمان بالله هو العروة الوثقى

قال تعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[2].

إن قضية العقيدة – كما جاء بها هذا الدين – قضية اقتناع بعد البيان والإدراك ، وليست قضية إكراه وغصب وإجبار ، ولقد جاء هذا الدين يخاطب الإدراك البشرى بكل قواه وطاقاته ، يخاطب العقل المفكر ، والبداهة الناطقة ، ويخاطب الوجدان المنفعل ، كما يخاطب الفطرة المستكنة ، يخاطب الكيان البشرى كله ، والإدراك البشرى بكل جوانبه ، فى غير قهر حتى

(١) أخرجه الإمام أحمد ٢٧٥/٢ - ٢٧٦ و٢٩٣ و ٥٣٤ ، وأبو عوانة ١٥٩/١ و١٦٢ و ١٦٣ ، وابن أبى عاصم ١٩٩/١ . وأخرجه بلفظ : «هل تضارون فى (رؤية) الشمس أو القمر ..» البخارى ١٤٧/٨ و ٥٦/٦ و ١٥٦/٩ و ١٥٨ ، ومسلم (الإيمان) ٣٠٢ و (الزهد) ٢٦ ، وأبو داود (٤٧٣٠) ، وأحمد ٢٥٧/٢ و٢٩٣ و ٥٣٤ و١٦/٣ ، والحميدى (١١٧٨) ، وعبد الرزاق (٢٠٨٥٦) ، والحاكم ٥٨٣/٤ ، و «الإتحاف» ٥٨٥/٩ و٤٦٧/١٠ و ٥٦٥ و «مكشاة المصابيح» (٥٥٥٥) والطبرى ٩٦/٢٥ ، و «زاد المسير» ٤٢٣/٨ ، و «الدر المنثور» ٢٩٠/٦ وغيرهم .

(٢) البقرة : ٢٥٦ - ٢٥٧ .

بالخارقة المادية التى قد تلجئ مشاهدها إلجاءً إلى الإذعان ، ولكن وعيه لا يتدبرها وإدراكه لا يتعقلها لأنها فوق الوعى والإدراك .

وإذا كان هذا الدين لا يواجه الحس البشرى بالخارقة المادية القاهرة ، فهو من باب أولى لا يواجهه بالقوة والإكراه ليعتنق هذا الدين تحت تأثير التهديد أو مزاولة الضغط القاهر والإكراه بلا بيان ولا إقناع ولا اقتناع .

وكانت المسيحية آخر الديانات قبل الإسلام قد فرضت فرضاً بالحديد والنار ووسائل التعذيب والقمع التى زاولتها الدولة الرومانية بمجرد دخول الإمبراطور قسطنطين فى المسيحية ، بنفس الوحشية والقسوة التى زاولتها الدولة الرومانية من قبل ضد المسيحيين القلائل من رعاياها الذين اعتنقوا المسيحية اقتناعاً وحباً ! ولم تقتصر وسائل القمع والقهر على الذين لم يدخلوا فى المسيحية ، بل إنها ظلت تتناول فى ضراوة المسيحيين أنفسهم الذين لم يدخلوا فى مذهب الدولة ، وخالفوها فى بعض الاعتقاد بطبيعة المسيح ! .

فلما جاء الإسلام عقب ذلك جاء يعلن فى أول ما يعلن هذا المبدأ العظيم الكبير :

﴿ لا إكراه فى الدين قد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ من الغى .. ﴾

فى هذا المبدأ يتجلى تكريم الله للإنسان ، واحترام إرادته وفكره ومشاعره ، وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال فى الاعتقاد ، وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه .. وهذه هى أخص خصائص التحرر الإنسانى .. التحرر الذى تنكره على الإنسان فى القرن العشرين مذاهب معتسفة ونظم مذلة ، لا تسمح لهذا الكائن الذى كرمه الله باختياره لعقيدته أن ينطوى ضميره على تصور للحياة ونظمها غير ما تمليه عليه الدولة بشتى أجهزتها التوجيهية ، وما تمليه عليه بعد ذلك بقوانينها وأوضاعها ، فإما أن يعتنق مذهب الدولة هذا ، وهو يَحْرِمه من الإيمان بإله للكون يصرف هذا الكون وإما أن يتعرض للموت بشتى الوسائل والأسباب ! .

إن حرية الاعتقاد هى أول حقوق الإنسان التى يثبت له بها وصف إنسان ، فالذى يسلب إنساناً حرية الاعتقاد ، إنما يسلبه إنسانيته ابتداء .. ومع حرية الاعتقاد حرية الدعوة للعقيدة ، والأمن من الأذى والفتنة .. وإلا فهى

حرية بالاسم لا مدلول لها فى واقع الحياة .

والإسلام وهو أرقى تصور للوجود وللحياة ، وأقوم منهج للمجتمع الإنسانى بلا مراء هو الذى ينادى بأن لا إكراه فى الدين ، وهو الذى يبين لأصحابه قبل سواهم أنهم ممنوعون من إكراه الناس على هذا الدين .. فكيف بالمذاهب والنظم الأرضية القاصرة المعتسفة وهى تفرض فرضاً بسلطان الدولة ، ولا يسمح لمن يخالفها بالحياة ؟ .

والتعبير هنا يرد فى صورة النفى المطلق : ﴿**لا إكراه فى الدين**﴾ .. نفى الجنس كما يقول النحويون .. أى نفى جنس الإكراه ، ففى كونه ابتداء ، فهو يستبعده من عالم الوجود والوقوع ، وليس مجرد نهى عن مزاولته ، والنهى فى صورة النفى – والنفى للجنس – أعمق إيقاعاً وآكد دلالة .

ولا يزيد السياق على أن يلمس الضمير البشرى لمسة توقظه ، وتشوقه إلى الهدى ، وتهديه إلى الطريق ، وتبين حقيقة الإيمان التى أعلن أنها أصبحت واضحة وهو يقول :

﴿ **قد تبين الرشد من الغى** ﴾ ..

فالإيمان هو الرشد الذى ينبغى للإنسان أن يتوخاه ويحرص عليه ، والكفر هو الغى الذى ينبغى للإنسان أن ينفر منه ويتقى أن يوصم به .

والأمر كذلك فعلاً ، فما يتدبر الإنسان نعمة الإيمان ، وما تمنحه للإدراك البشرى من تصور ناصع واضح ، وما تمنحه للقلب البشرى من طمأنينة وسلام ، وما تثيره فى النفس البشرية من اهتمامات رفيعة ومشاعر نظيفة ، وما تحققه فى المجتمع الإنسانى من نظام سليم قويم دافع إلى تنمية الحياة وترقية الحياة .. ما يتدبر الإنسان نعمة الإيمان على هذا النحو حتى يجد فيها الرشد الذى لا يرفضه إلا سفيه ، يترك الرشد إلى الغى ، ويدع الهدى إلى الضلال ، ويؤثر التخبط والقلق والهبوط والضآلة على الطمأنينة والسلام والرفعة والاستعلاء ! .

ثم يزيد حقيقة الإيمان إيضاحاً وتحديداً وبياناً :

﴿ **فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها** ﴾ ..

إن الكفر ينبغى أن يوجه إلى ما يستحق الكفر ، وهو « الطاغوت » ، وإن الإيمان يجب أن يتجه إلى من يجدر الإيمان به وهو «الله » .

والطاغوت صيغة من الطغيان ، تفيد كل ما يطغى على الوعى ، ويجوز على الحق ، ويتجاوز الحدود التى رسمها الله للعباد ، ولا يكون له ضابط من العقيدة فى الله ، ومن الشريعة التى يسنها الله ، ومنه كل منهج غير مستمد من الله ، وكل تصور أو وضع أو أدب أو تقليد لا يستمد من الله ، فمن يكفر بهذا كله فى كل صورة من صورة ويؤمن بالله وحده ويستمد من الله وحده فقد نجا .. وتتمثل نجاته فى استمساكه بالعروة الوثقى لا انفصام لها .

وهنا نجدنا أمام صورة حسية لحقيقة شعورية ، ولحقيقة معنوية .. إن الإيمان بالله عروة وثيقة لا تنفصم أبداً .. إنها متينة لا تنقطع .. ولا يضل الممسك بها طريق النجاة .. إنها موصولة بمالك الهلاك والنجاة .. والإيمان فى حقيقته اهتداء إلى الحقيقة الأولى التى تقوم بها سائر الحقائق فى هذا الوجود .. حقيقة الله .. واهتداء إلى حقيقة الناموس الذى سنه الله لهذا الوجود ، وقام به هذا الوجود ، والذى يمسك بعروته يمضى على هدى إلى ربه ، فلا يرتطم ولا يتخلف ولا تتفرق به السبل ولا يذهب به الشرود والضلال ﴿ والله سميع عليم ﴾ ..

يسمع منطق الألسنة ، ويعلم مكنون القلوب ، فالمؤمن الموصول به لايبخس ولا يظلم ولا يخيب .

ثم يمضى السياق يصور فى مشهد حسى حيّ متحرك طريق الهدى وطريق الضلال ، وكيف يكون الهدى وكيف يكون الضلال .. يصور كيف يأخذ الله ولىُّ الذين آمنوا بأيديهم ، فيخرجهم من الظلمات إلى النور ، بينما الطواغيت أولياء الذين كفروا تأخذ بأيديهم فتخرجهم من النور إلى الظلمات ! .

إنه مشهد عجيب حيّ موح ، والخيال يتبع هؤلاء وهؤلاء ، جيئة من هنا وذهاباً من هناك ، بدلاً من التعبير الذهنى المجرد ، الذى لا يُحَرك خيالاً ، ولا يلمس حساً ، ولا يستجيش وجداناً ، ولا يخاطب إلّا الذهن بالمعانى والألفاظ .

فإذا أردنا أن ندرك فضل طريقة التصوير القرآنية ، فلنحاول أن نضع فى مكان هذا المشهد الحىّ تعبيراً ذهنياً أيّاً كان ، لنقل مثلاً : الله ولىُّ الذين آمنوا يهديهم إلى الإيمان . والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يقودونهم إلى الكفران .. إن التعبير يموت بين أيدينا ، ويفقد ما فيه من حرارة وحركة وإيقاع ! .

وإلى جانب التعبير المصور الحىّ الموحى نلتقى بدقة التعبير عن الحقيقة :

﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾ ..

إن الإيمان نور .. نور واحد فى طبيعته وحقيقته .. وإن الكفر ظلمات .. ظلمات متعددة متنوعة ، ولكنها كلها ظلمات .

وما من حقيقة أصدق ولا أدق من التعبير عن الإيمان بالنور ، والتعبير عن الكفر بالظلمة .

إن الإيمان نور يشرق به كيان المؤمن أول ما ينبثق فى ضميره ، تشرق به روحه فتشف وتصفو وتشع من حولها نوراً ووضاءة ووضوحاً .. نور يكشف حقائق الأشياء وحقائق القيم وحقائق التصورات ، فيراها قلب المؤمن واضحة بغير غبش ، بَيِّنَةً بغير لَبْسٍ ، مستقرة فى مواضعها بغير أُرْجَحَةٍ فيأخذ منها ما يأخذ ويدع منها ما يدع فى هوادة وطمأنينة وثقة وقرار لا أرجحة فيه .. نور يكشف الطريق إلى الناموس الكونى فيطابق المؤمن بين حركته وحركة الناموس الكونى من حوله ومن خلاله ، ويمضى فى طريقه إلى الله هيناً ليناً لا يعتسف ولا يصطدم بالنتوءات[1]، ولا يخبط هنا وهناك ، فالطريق فى فطرته مكشوف معروف .

وهو نور واحد يهدى إلى طريق واحد ، فأما ضلال الكفر فظلمات شتى منوعة .. ظلمة الهوى والشهوة ، وظلمة الشرود والتيه ، وظلمة الكِبْرِ والطُّغْيَان ، وظلمة الضَّعْفِ والذلة ، وظلمة الرِّيَاء والنفاق ، وظلمة الطمع والسعر وظلمة الشك والقلق .. وظلمات شتى لا يأخذها الحصر تتجمع كلها عند الشرود عن طريق الله ، والتلقى من غير الله ، والاحتكام لغير منهج الله .. وما يترك الإنسان نور الله الواحد الذى لا يتعدى ، نور الحق الواحد الذى

(١) النتوءات : التعرجات .

لا يتلبس ، حتى يدخل فى الظلمات من شتى الأنواع وشتى الأصناف .. وكلها ظلمات .. !

والعاقبة هى اللائقة بأصحاب الظلمات :

﴿ **أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ .. وإذ لم يهتدوا بالنور ، فليخلدوا إذن فى النار ! .

إن الحق واحد لا يتعدد والضلال ألوان وأنماط .. فماذا بعد الحق إلّا الضلال ؟ .

الذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها

قال تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾[1].

والطاغوت صياغة من الطغيان ، نحو ملكوت وعظموت ورحموت ، تفيد المبالغة والضخامة ، والطاغوت كل ما طغا وتجاوز الحد ، والذين اجتنبوا عبادتها هم الذين اجتنبوا عبادة غير المعبود فى أية صورة من صور العبادة . وهم الذين أنابوا إلى ربهم ، وعادوا إليه ، ووقفوا فى مقام العبودية له وحده .

هؤلاء لهم البشرى صادرة إليهم من الملأ الأعلى ، والرسول (ﷺ) يبلغها لهم بأمر الله : ﴿ **فبشر عباد** ﴾ .. إنها البشرى العلوية يحملها إليهم رسول كريم ، وهذا وحده نعيم ! .

هؤلاء من صفاتهم أنهم يستمعون ما يستمعون من القول ، فتلتقط قلوبهم أحسنه وتطرد ما عداه ، فلا يلحق بها ولا يلصق إلا الكلم الطيب ، الذى تزكو به النفوس والقلوب .. والنفس الطيبة تتفتح للقول الطيب فتتلقاه

(١) الزمر : ١٧ - ١٨ .

وتستجيب له ، والنفس الخبيثة لا تتفتح إلا للخبيث من القول ولا تستجيب إلا له .

﴿ **أولئك الذين هداهم الله** ﴾ ..

فقد علم الله فى نفوسهم خيراً فهداهم إلى استماع أحسن القول والاستجابة له ، والهدى هدى الله .

﴿ **وأولئك هم أولو الألباب** ﴾ ..

فالعقل السليم هو الذى يقود صاحبه إلى الزكاة ، وإلى النجاة ، ومن لا يتبع طريق الزكاة والنجاة فكأنه مسلوب العقل محروم من هذه النعمة التى أعطاها له الله .

الذى جاءت به الرسل عبادة الله واجتناب الطاغوت

قال تعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[1].

إنهم يحيلون شركهم وعبادتهم آلهة من دون الله هم وآباؤهم ، وأوهام الوثنية التى يزاولونها من تحريمهم لبعض الذبائح وبعض الأطعمة على أنفسهم بغير

---

(١) النحل : ٣٥ - ٣٦ .

شريعة من الله .. إنهم يحيلون هذا كله على إرادة الله ومشيئته ، فلو شاء الله – فى زعمهم – ألا يفعلوا شيئاً من هذا لمنعهم من فعله .

وهذا وهم وخطأ فى فهم معنى المشيئة الإلهية ، وتجريد للإنسان من أهم خصائصه التى وهبها له الله لاستخدامها فى الحياة .

فالله سبحانه لا يريد لعباده الشرك ، ولا يرضى لهم أن يُحَرِّمُوا ما أَحَلَّهُ لهم من الطيبات ، وإرادته هذه ظاهرة منصوص عليها فى شرائعه ، عـلى أَلْسِنَةِ الرسل الذين كلفوا التبليغ له وحده فقاموا به وأدوه : ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمه رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطَّاغوت** ﴾ فهذا أمره وهذه إرادته لعباده ، والله تعالى لا يأمر الناس بأمر يعلم أنه منعهم خلقةً من القدرة عليه ، أو دفعهم قسرًا إلى مخالفته ، وآية عدم رضاه عن مخالفة أمره هذا ما أخذ به المكذبين ﴿ **فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾ ..

إنما شاءت إرادة الخالق الحكيم أن يخلق البشر باستعداد للهدى وللضلال ، وأن يدع مشيئتهم حرة فى اختيار أى الطريقين ، ومنحهم بعد ذلك العقل يرجحون به حد الاتجاهين ، بعد ما بث فى الكون من آيات الهدى ما يلمس العين والأذن والحس والقلب والعقل حيثما اتجهت آناء الليل وأطراف النهار .. ثم شاءت رحمة الله بعباده بعد هذا كله ألا يدعهم لهذا العقل وحده ، فوضع لهذا العقل ميزاناً ثابتاً فى شرائعه التى جاءت بها رسله ، يثوب إليه العقل كلما غَمَّ عليه الأمر ، ليتأكد من صواب تقديره أو خطئه عن طريق الميزان الثابت الذى لا تعصف به الأهواء ، ولم يجعل الرسل جبارين يلوون أعناق الناس إلى الإيمان ، ولكن مبلغين ليس عليهم إلا البلاغ ، يأمرون بعبادة الله وحده واجتناب كل ما عداه من وثنية وهوى وشهوة وسلطان :

﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾ ..

ففريق استجاب : ﴿ **فمنهم من هدى الله** ﴾ وفريق شرد فى طريق الضلال ﴿ **ومنهم من حقت عليه الضلالة** ﴾ .. وهذا الفريق وذلك كلاهما لم يخرج على مشيئة الله ، وكلاهما لم يقسره الله قسراً على هدى أو ضلال ، إنما سلك طريقة الذى شاءت إرادة الله أن تجعل إرادته حرة فى سلوكه ، بعد ما زودته بمعالم الطريق فى نفسه وفى الآفاق .

كذلك ينفى القرآن الكريم بهذا النص وَهْم الإجبار الذى لَوَّحَ به المشركون ، والذى يستند إليه كثير من العصاة والمنحرفين ، والعقيدة الإسلامية عقيدة ناصعة واضحة فى هذه النقطة ، فالله يأمر عباده بالخير وينهاهم عن الشرّ ويعاقب المذنبين أحياناً فى الدنيا عقوبات ظاهرة يتضح فيها غضبه عليهم ، فلا مجال بعد هذا لأن يقال : إن إرادة الله تتدخل لترغمهم على الانحراف ثم يعاقبهم عليه الله ! إنما هم متروكون لاختيار طريقهم وهذه هى إرادة الله ، وكل ما يصدر عنهم من خير أو شر ، من هدى ومن ضلال ، يتم وفق مشيئة الله على هذا المعنى الذى فَصَّلْنَاه .

ومن ثم يعقب على هذا بخطاب إلى الرسول (ﷺ) يقرر سنة الله فى الهدى والضلال ..

﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾[1] ..

سبيل الله وسبيل الطاغوت

قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾[2]...

فى لمسة واحدة يقف الناس على مفرق الطريق .. وفى لحظة ترتسم الأهداف ، وتتضح الخطوط ، وينقسم الناس إلى فريقين اثنين ، تحت رايتين متميزتين :

﴿ الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ﴾ ..

﴿ والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ﴾ ..

الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، لتحقيق منهجه ، وإقرار شريعته ،

---

(١) النحل : ٣٧ .   (٢) النساء : ٧٦ .

وإقامة العدل بين الناس باسم الله ، لا تحت أى عنوان آخر ، اعترافاً بأن الله وحده هو الإله ومن ثم فهو الحاكم :

والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، لتحقيق مناهج شتى غير منهج الله وإقرار شرائع شتى غير شريعة الله وإقامة قيم شتى غير التى أذن بها الله وَنَصب موازين شتى غير ميزان الله ! .

ويقف الذين آمنوا مستندين إلى ولاية الله وحمايته ورعايته .

ويقف الذين كفروا مستندين إلى ولاية الشيطان بشتى راياتهم ، وشتى مناهجهم ، وشتى شرائعهم ، وشتى طرائقهم ، وشتى قيمهم ، وشتى موازينهم .. فكلهم أولياء الشيطان .

ويأمر الله الذين آمنوا أن يقاتلوا أولياء الشيطان ، ولا يخشوا مكرهم ولا مكر الشيطان :

﴿ فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾ ..

وهكذا يقف المسلمون على أرض صلبة ، مسندين ظهورهم إلى ركن شديد ، مقتنعي الوجدان بأنهم يخوضون معركة الله ، ليس لأنفسهم منها نصيب ، ولا لذواتهم منها حظ ، وليست لقومهم ، ولا لجنسهم ، ولا لقرابتهم وعشيرتهم منها شيء .. إنما هى لله وحده ، ولمنهجه وشريعته ، وأنهم يواجهون قوماً أهل باطل ، يقاتلون لتغليب الباطل على الحق ، لأنهم يقاتلون لتغليب مناهج البشر الجاهلية وكل مناهج البشر جاهلية – على شريعة منهج الله ، ولتغليب شرائع البشر الجاهلية – وكل شرائع البشر جاهلية – على الله ، ولتغليب ظلم البشر – وكل حكم للبشر من دون الله ظلم – على عدل الله ، الذى هم مأمورون .

كذلك يخوضون المعركة ، وهم يوقنون أن الله وليهم فيها ، وأنهم يواجهون قوماً ، الشيطان وليهم فهم إذن ضعاف ، إن كيد الشيطان كان ضعيفاً .

ومن هنا يتقرر مصير المعركة فى حس المؤمنين ، وتتحدد نهايتها ، قبل أن يدخلوها ، وسواء بعد ذلك استشهد المؤمن فى المعركة – فهو واثق من

النتيجة – أم بقى حتى غلَبَ ، ورأى بعينيه النصر ، فهو واثق من الأجر العظيم .

من هذا التصور الحقيقى للأمر فى كلتا حالتيه ، انبثقت تلك الخوارق الكثيرة التى حفظها تاريخ الجهاد فى سبيل الله فى حياة الجماعة المسلمة الأولى ، والتى تناثرت على مدى التاريخ فى أجيال كثيرة ، وما بنا أن نضرب لها هُنا الأمثال ، فهى كثيرة مشهورة ، ومن هذا التصور كان ذلك المد الإسلامى العجيب ، فى أقصر فترة عرفت فى التاريخ ، فقد كان هذا التصور جانباً من جوانب التفوق الذى حققه المنهج الربانى للجماعة المسلمة ، على المعسكرات المعادية ، وبناء هذا التصور ذاته كان طرفاً من المعركة الكلية الشاملة التى خاضها القرآن فى نفوس المؤمنين ، وهو يخوض بهم المعركة مع أعدائهم المتفوقين فى العدد والعُدّة والمال ، ولكنهم فى هذا الجانب كانوا متخلفين ، فأمسوا مهزومين ! .

تكاليف العبودية للطاغوت

قال تعالى :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُوا۟

كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾[1]..

ندرك من هذا النص أن قوم شعيب كانوا قوماً مشركين لا يعبدون الله وحده ، إنما يشركون معه عباده فى سلطانه ، وأنهم ما كانوا يرجعون فى معاملاتهم إلى شرع الله العادل ، إنما كانوا يتخذون لأنفسهم من عند أنفسهم

---

(١) الأعراف : ٨٥ - ٩٣ .

قواعد للتعامل ولعل شركهم إنما كان فى هذه الخصلة وأنهم لذلك كانوا سيئى المعاملة فى البيع والشراء ، كما كانوا مفسدين فى الأرض ، يقطعون الطريق على سواهم ، ظَلَمَة يفتنون الذين يهتدون ويؤمنون عن دينهم ، ويصدونهم عن سبيل الله المستقيم ، ويكرهون الاستقامة التى فى سبيل الله ، ويريدون أن تكون الطريق عوجاء منحرفة ، لا تمضى على استقامتها كما هى فى منهج الله .

ويبدأ شعيب عليه السلام بدعوتهم إلى عبادة الله وحده وإفراده سبحانه بالألوهية ، وإلى الدينونة له وحده وإفراده من ثم بالسلطان فى أمر الحياة كله .

يبدأ شعيب عليه السلام فى دعوتهم من هذه القاعدة ، التى يعلم أنه منها تنبثق كل مناهج الحياة وكل أوضاعها ، كما أن منها تنبثق قواعد السلوك والخلق والتعامل ، ولا تستقيم كلها إلّا إذا استقامت هذه القاعدة .

ويستصحب فى دعوتهم إلى الدينونة لله وحده ، وإقامة حياتهم على منهجه المستقيم ، وترك الإفساد فى الأرض بالهوى بعدما أصلحها الله بالشريعة .. يستصحب فى دعوتهم إلى هذا كله بعض المؤثرات الموحية .. يذكرهم نعمة الله عليهم :

﴿ **واذكروا إذ كنتم قليلاً فَكَثَّرَكُم** ﴾ ..

ويخوفهم عاقبة المفسدين من قبلهم :

﴿ **وانظروا كيف كانَ عاقبة المفسدين** ﴾ ..

كذلك يريد منهم أن يأخذوا أنفسهم بشىء من العدل وسعة الصدر ، فلا يفتنوا المؤمنين الذين هداهم الله إليه عن دينهم ، ولا يقعدوا لهم بكل صراط ، ولا يأخذوا عليهم كل سبيل ، مهددين لهم موعدين ، وأن ينتظروا حكم الله بين الفريقين ، إن كانوا هم لا يريدون أن يكونوا مؤمنين :

﴿ **وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أُرسلتُ بهِ وطائفةٌ لم يؤْمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين** ﴾ ..

لقد دعاهم إلى أعدل خطة ، ولقد وقف عند آخر نقطة لا يملك أن يتراجع وراءها خطوة .. نقطة الانتظار والتريث والتعايش بغير أذى ، وترك كلٍّ وما اعتنق من دين ، حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .

ولكن الطواغيت لا يرضيهم أن يكون للإيمان فى الأرض وجود ممثل فى

جماعة من الناس لا تدين للطاغوت .. إن وجود جماعة مسلمة فى الأرض لا تدين إلا لله ، ولا تعترف بسلطان إلا سلطانه ، ولا تحكم فى حياتها شرعاً إلا شرعه ، ولا تتبع فى حياتها منهجاً إلا منهجه .. إن وجود جماعة مسلمة كهذه يهدد سلطان الطواغيت حتى لو انعزلت هذه الجماعة فى نفسها ، وتركت الطواغيت لحكم الله حين يأتى موعده .

إن الطاغوت يفرض المعركة فرضاً على الجماعة المسلمة حتى لو آثرت هى ألا تخوض معه المعركة إن وجود الحق فى ذاته يزعج الباطل ، وهذا الوجود ذاته هو الذى يفرض عليه المعركة مع الباطل .. إنها سنة الله لابد أن تجرى ..

﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه لَنُخْرِجَنَّكَ ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا ﴾ ..

هكذا فى تبجح سافر ، وفى إصرار على المعركة لا يقبل المهادنة والتعايش ! .

إلَّا أن قوة العقيدة لا تتلعثم ولا تتزعزع أمام التهديد والوعيد .. لقد وقف شعيب عليه السلام عند النقطة التى لا يملك أن يتزحزح وراءها خطوة .. نقطة المسالمة والتعايش على أن يترك لمن شاء أن يدخل فى العقيدة التى يشاء ، وأن يدين للسلطان الذى يشاء : فى انتظار فتح الله وحكمه بين الفريقين وما يملك صاحب دعوة أن يتراجع خطوة واحدة وراء هذه النقطة ، تحت أى ضغط أو أى تهديد من الطواغيت .. وإلا تنازل كلية عن الحق الذى يمثله وخانه .. فلما أن تلقى الملأ المستكبرون عرضه هذا بالتهديد بالإخراج من قريتهم أو العودة فى ملتهم ، صدع شعيب بالحق ، مستمسكاً بملته ، كارهاً أن يعود فى الملة الخاسرة التى أنجاه الله منها ، واتجه إلى ربه وملجئه ومولاه يدعوه ويستنصره ويسأله وعده بنصرة الحق وأهله :

﴿ قال أو لو كنا كارهين قد افترينا على الله كذباً إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شىء علماً على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ ..

وفى هذه الكلمات القلائل تتجلى طبيعة الإيمان ، ومذاقه فى نفوس أهله ،

كما تتجلى طبيعة الجاهلية ، ومذاقها الكريه ، كذلك نشهد فى قلب الرسول ذلك المشهد الرائع .. مشهد الحقيقة الإلهية فى ذلك القلب وكيف تتجلى فيه :

﴿ **قال أو لو كنا كارهين** ﴾ ..

يستنكر تلك القوة الفاجرة : ﴿ **لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا** ﴾ .. يقول لهم : أتجبروننا على ما نكره من ملتكم التى نجانا الله منها ؟ .

﴿ **قد افترينا على الله كذباً إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها** ﴾ ..

إن الذى يعود إلى ملة الطاغوت والجاهلية ، التى لا يخلص فيها الناس الدينونة والطاعة لله وحده ، والتى يتخذ الناس فيها أرباباً من دون الله يقرون لهم بسلطان الله .. إن الذى يعود إلى هذه الملة بعد إذ قسم الله له الخير وكشف له الطريق ، وهداه إلى الحق ، وأنقذه من العبودية للعبيد إنما يؤدى شهادة كاذبة على الله ودينه ، شهادة مؤداها أنه لم يجد فى ملة الله خيراً فتركها وعاد إلى ملة الطاغوت ! أو مؤداها على الأقل أن لملة الطاغوت حقاً فى الوجود ، وشرعية فى السلطان ، وأن وجودها لا يتنافى مع الإيمان بالله ، فهو يعود إليها ويعترف بها بعد أن آمن بالله ، وهى شهادة خطيرة أخطر من شهادة من لم يعرف الهدى ، ولم يرفع راية الإسلام ، شهادة الاعتراف براية الطغيان ، ولا طغيان وراء اغتصاب سلطان الله فى الحياة ! .

وكذلك يستنكر شعيب عليه السلام ما يتهدده به الطغاة من إعادته هو والذين آمنوا معه إلى الملة التى أنجاهم الله منها :

﴿ **وما يكون لنا أن نعود فيها** ﴾ ..

وما من شأننا أصلاً ، وما ينبغى لنا قطعاً أن نعود فيها .. يقولها وأمامه التهديد الذى يزاوله الطاغوت فى كل أرض مع الجماعة المسلمة ، التى تعلن خروجها عن سلطانه ، ودينونتها لله وحده بلا شريك معه أو من دونه .

إن تكاليف الخروج من العبودية للطاغوت والدينونة لله وحده مهما عظمت وشقت أقل وأهون من تكاليف العبودية للطواغيت ! إن تكاليف العبودية للطواغيت فاحشة مهما لاح فيها من السلامة والأمن والطمأنينة على الحياة والمقام والرزق ! إنها تكاليف بطيئة طويلة مديدة ! تكاليف فى إنسانية

الإنسان ذاته فهذه الإنسانية لا توجد ، والإنسان عبد الإنسان وأى عبودية شر من خضوع الإنسان لما يشرعه له إنسان ؟ وأى عبودية شر من تعلق قلب إنسان بإرادة إنسان آخر به ، ورضاه أو غضبه عليه ؟ وأى عبودية شر من أن تتعلق مصائر إنسان بهوى إنسان مثله ورغباته وشهواته ؟ وأى عبودية شر من أن يكون للإنسان خطام أو لجام يقوده منه كيفما شاء إنسان ؟ .

على أن الأمر لا يقف عند حد هذه المعانى الرفيعة .. إنه يهبط حتى يكلف الناس فى حكم الطواغيت أموالهم التى لا يحميها شرع ولا يحوطها سياج . كما يكلفهم أولادهم إذ ينشئهم الطاغوت كما شاء على ما شاء من التصورات والأفكار والمفهومات والأخلاق والتقاليد والعادات ، فوق ما يتحكم فى أرواحهم وفى حياتهم ذاتها ، فيذبحهم على مذبح هواه ، ويقيم من جماجمهم وأشلائهم أعلام المجد لذاته والجاه ! ثم يكلفهم أعراضهم فى النهاية .. حيث لا يملك أب أن يمنع فتاته من الدعارة التى يريدها بها الطواغيت ، سواء فى صورة الغضب المباشر كما يقع على نطاق واسع على مدار التاريخ أو فى صورة تنشئتهن على تصورات ومفاهيم تجعلهن نهباً مباحاً للشهوات تحت أى شعار ! وتمهد لهن الدعارة والفجور تحت أى ستار ، والذى يتصور أنه ينجو بماله وعرضه وحياته وحياة أبنائه وبناته فى حكم الطواغيت من دون الله ، إنما يعيش فى وهم ، أو يفقد الإحساس بالواقع ! .

إن عبادة الطاغوت عظيمة التكاليف فى النفس والعرض والمال ، ومهما تكن تكاليف العبودية لله ، فهى أربح وأقوم حتى بميزان هذه الحياة فضلاً على وزنها فى ميزان الله .

يقول السيد أبو الأعلى المودوى فى كتاب : « الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية » :

وكل من له أدنى بصيرة بمسائل الحياة الإنسانية ، لا يخفى عليه أن المسألة التى تتوقف عليها قضية صلاح الشئون البشرية وفسادها إنما هى مسألة زعامة الشئون البشرية ومن بيده زمام أمرها . وذلك كما تشاهد فى القطار أنه لا يجرى إلّا إلى الجهة التى يوجهه إليها سائقة ، وإنه لابد للركاب أن يسافروا طوعاً أو كرهاً إلى تلك الجهة التى يوجهه إليها من بأيديهم زمام أمر تلك

المدينة ، ومن الظاهر البين أن الإنسانية بمجموعها لا تستطيع بحال من الأحوال أن تأبى السير على تلك الخطة التى رسمها لهم الذين بأيديهم وسائل الأرض وأسبابها ظراً[1]، ولهم الهيمنة كل الهيمنة على أزمة الأمر ، وبيدهم السلطة المطلقة فى تدبير شئون الإنسانية ، وتتعلق بأذيالهم نفوس الجماهير وآمالهم وهم يملكون أدوات تكوين الأفكار والنظريات وصوغها فى قوالب يحبونها ، وإليهم المرجع فى تنشئه الطباع الفردية ، وإنشاء النظام الجماعى ، وتحديد القيم الخلقية . فإذا كان هؤلاء الزعماء والقواد ممن يؤمنون بالله ويرجون حسابه .. فلابد لنظام الحياة بأسره أن يسير على طريق من الخير والرشد والصلاح ، وأن يعود الخبثاء الأشرار إلى كنف الدين ويصلحوا شئونهم ، وكذلك تنمو الحسنات ويزكوا غرسها ، وأقل ما يكون من تأثير المجتمع فى السيئات أنها لا تربو . إن لم تمحق وتنقرض آثارها ، وأما إذا كانت هذه السلطة سلطة الزعامة والقيادة والإمامة بأيدى رجال انحرفوا عن الله ورسوله ، واتبعوا الشهوات وانغمسوا فى الفجور والطغيان ، فلا محالة أن يسير نظام الحياة بقضه[2] وقضيضه على البغى والعدوان والفحشاء ، ويدب دبيب الفساد والفوضى فى الأفكار والنظريات والعلوم والآداب والسياسة والمدنية والثقافة والعمران والأخلاق والمعاملات والعدالة والقانون برمتها ، وتنمو السيئات ويستفحل أمرها ..

... والظاهر أن أول ما يطالب به دين الله عباده ، أن يدخلوا فى عبودية الحق كافة مخلصين له الطاعة والانقياد ، حتى لا يبقى فى أعناقهم قلادة من قلائد العبودية لغير الله تعالى ، ثم يتطلب منهم ألا يكون لحياتهم قانون إلا ما أنزله الله تعالى ، وجاء به الرسول الأمى الكريم (ﷺ) ثم إن الإسلام يطالبهم أن ينعدم من الأرض الفساد ، وتستأصل شأفة السيئات والمنكرات الجالبة على العباد غضب الله تعالى وسخطه . وهذه الغايات السامية لا يمكن أن يتحقق منها شيء وما دامت قيادة أبناء البشر وتسيير شئونهم فى الأرض بأيدى أئمة الكفر والضلال ، ولا يكون من أمر أتباع الدين الحق وأنصاره إلا أن

---

(١) ظِرّاً : ظَرّاً ، وظُروراً : كان طريراً ذا رواء وجمال .

(٢) قَضُّة : الحصى الكبار ، والقضيض : الحصى الصغار ، يقال : جاء القوم بقضهم وقضيضهم : جميعهم .

يستسلموا لأمر هؤلاء وينقادوا لجبروتهم ، يذكرون الله قابعين فى زواياهم . منقطعين عن الدنيا وشئونها ، مغتنمين ما يتصدق به هؤلاء الجبابرة عليهم من المسامحات والضمانات ! ومن هنا يظهر ما للإمامة الصالحة وإقامة نظام الحق من أهمية خطيرة تجعلها من غايات الدين وأسسه ، والحق أن الإنسان لا يمكنه أن يبلغ رضى الله تعالى بأى عمل من أعماله إذا تناسى هذه الفريضة وتقاعس عن القيام بها .. ألم تروا ما جاء فى الكتاب والسنة من ذكر الجماعة ولزومها والسمع والطاعة ، حتى إن الإنسان ليستوجب القتل إذا خرج من الجماعة ولو قيد شعره وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم ، وهل لذلك من سبب سوى أن غرض الدين الحقيقى وهدفه إنما هو إقامة نظام الحق ، والإمامة الراشدة وتوطيد دعائمه فى الأرض ، وكل ذلك يتوقف تحققه على القوة الجماعية ، والذى يضعضع القوة الجماعية ويفتت فى عضدها ، يجنى على الإسلام وأهله جناية لا يمكن جبرها وتلافيها بالصلاة ولا بالإقرار بكلمة التوحيد .. ثم انظروا إلى ما كسب الجهاد من المنزلة العالية والمكانة الرفيعة فى الدين ، حتى إن القرآن ليحكم بالنفاق على الذين يتكلمون عنه وَيَثَّاقلون إلى الأرض ذلك أن الجهاد هو السعى المتواصل والكفاح المستمر فى سبيل إقامة نظام الحق ، ليس غير ، وهذا الجهاد هو الذى يجعله القرآن ميزاناً يوزن به إيمان الرجل وإخلاصه للدين ، وبعبارة أخرى أنه من كان يؤمن بالله ورسوله لا يمكنه أن يرضى بتسلط النظام الباطل ، أو يقعد عن بذل نفسه وماله فى سبيل إقامة نظام الحق .. فكل من يبدو فى أعماله شىء من الضعف والاستكانة فى هذا الباب ، فاعلم أنه مدخول فى إيمانه ، مرتاب فى أمره ، فكيف ينفعه عمل من أعماله بعد ذلك ؟ ..

إن إقامة الإمامة الصالحة فى أرض الله لها أهمية جوهرية وخطورة بالغة فى نظام الإسلام ، فكل من يؤمن بالله ورسوله ويدين دين الحق ، لا ينتهى عمله بأن يبذل الجهد المستطاع لإفراغ حياته فى قالب الإسلام ، ولا تبرأ ذمته من ذلك فحسب ، بل يلزمه بمقتضى ذلك الإيمان أن يستنفد جميع قواه ومسامعه فى انتزاع زمام الأمر من أيدى الكافرين والفجرة والظالمين حتى يتسلمه رجال ذوو صلاح ممن يتقون الله ، ويرجون حسابه ، ويقوم فى الأرض ذلك النظام الحق المرضىّ عند الله الذى به صلاح أمور الدنيا وقوام شئونها .

إن الإسلام حين يدعو الناس إلى انتزاع السلطان من أيدى غاصبه من البشر ورده كله لله ، إنما يدعوهم لإنقاذ إنسانيتهم وتحرير رقابهم من العبودية للعبيد ، كما يدعوهم إلى إنقاذ أرواحهم وأموالهم من هوى الطواغيت وشهواتهم .. إنه يكلفهم أعباء المعركة مع الطاغوت تحت رايته بكل ما فيها من تضحيات . ولكنه ينقذهم من تضحيات أكبر وأطول ، كما أنها أذل وأحقر ! إنه يدعوهم للكرامة ، وللسلامة ، فى آن ..

لذلك قالها شعيب عليه السلام مدوية حاسمة :

﴿ قد افترينا على الله كذباً إن عدنا فى مِلّتكم بعد إذْ نجّانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها .. ﴾

ولكن شعيباً بقدر ما يرفع رأسه ، وبقدر ما يرفع صوته ، فى مواجهة طواغيت البشر من الملأ الذين استكبروا من قومه .. بقدر ما يخفض هامته ، ويسلم وجهته فى مواجهة ربه الجليل ، الذى وسع كل شىء علماً فهو فى مواجهة ربه ، لا يتألى عليه ولا يجزم بشىء أمام قدره ، ويدع له قياده وزمامه ، ويعلن خضوعه واستسلامه .

﴿ إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شىء علماً ﴾ ..

إنه يفوض الأمر لله ربه ، فى مستقبل ما يكون من أمره وأمر المؤمنين معه .. إنه يملك رفض ما يفرضه عليه الطواغيت ، من العودة فى ملتهم ويعلن تصميمه والمؤمنين معه على عدم العودة ، ويعلن الاستنكار المطلق للمبدأ ذاته .. ولكنه لا يجزم بشىء عن مشيئة الله به وبهم . فالأمر موكول إلى هذه المشيئة ، وهو والذين آمنوا معه لا يعلمون ، وربهم وسع كل شىء علماً ، فإلى علمه ومشيئته تفويضهم واستسلامهم .

إنه أدب ولى الله مع الله ، الأدب الذى يلتزم به أمره ، ثم لا يتألى بعد ذلك على مشيئته وقدره ، ولا يتأبى على شىء يريده به ويقدره عليه .

وهنا يدع شعيب طواغيت قومه وتهديدهم ووعيدهم ، ويتجه إلى وليه بالتوكل الواثق ، يدعوه أن يفصل بينه وبين قومه بالحق :

﴿ على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ ..

وهنا نشهد ذلك المشهد الباهر : مشهد تجلى حقيقة الألوهية فى نفس ولى الله ونبيه ..

إنه يعرف مصدر القوة ، وملجأ الأمان ، ويعلم أن ربه هو الذى يفصل بالحق بين الإيمان والطغيان ، ويتوكل على ربه وحده فى خوض المعركة المفروضة عليه وعلى المؤمنين معه ، والتى ليس منها مفر ، إلا بفتح من ربه ونصر .

عندئذ يتوجه الملأ الكفار من قومه إلى المؤمنين به يخوفونهم ويهددونهم ليفتنوهم عن دينهم : ﴿ **وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون** ﴾ .

إنها ملامح المعركة التى تتكرر ولا تتغير .. إن الطواغيت يتوجهون أولاً إلى الداعية ليكف عن الدعوة ، فإذا استعصم بإيمانه وثقته بربه ، واستمسك بأمانة التبليغ وتبعته ، ولم يرهبه التخويف بالذى يملكه الطغاة من الوسائل .. تحولوا إلى الذين اتبعوه يفتنونهم عن دينهم بالوعيد والتهديد ، ثم بالبطش والعذاب .. إنهم لا يملكون حجة على باطلهم ، ولكن يملكون أدوات البطش والإرهاب ، ولا يستطيعون إقناع القلوب بجاهليتهم وبخاصة تلك التى عرفت الحق فما عادت تستخف بالباطل ولكنهم يستطيعون البطش بالمصرّين على الإيمان ، الذى أخلصوا الدينونة لله فأخلصوا له السلطان .

ولكنه من سنة الله الجارية أنه عندما يتمحض الحق والباطل ويقفان وجهاً لوجه فى مفاصلة كاملة تجرى سنة الله التى لا تتخلف .. وهكذا كان ..

﴿ **فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دراهم جاثمين** ﴾ ..

الرجفة والجثوم ، جزاء التهديد والاستطالة ، وبسط الأيدى بالأذى والفتنة ..

طاغوت الباطل لا يطيق وجود الحق

إنّ البشرية تبدأ طريقها مهتدية مؤمنة موحدة .. ثم تنحرف إلى جاهلية ضالة مشركة بفضل العوامل المتشابكة المعقدة فى تركيب الإنسان ذاته ، وفى العوالم والعناصر التى يتعامل معها .. وهنا يأتيها رسول بذات الحقيقة

التى كانت عليها قبل أن تضل وتشرك ، فيهلك من يهلك ، ويحيا من يحيا ، والذين يحيون هم الذين آبوا إلى الحقيقة الإيمانية الواحدة ، هم الذين علموا أن لهم إلهاً واحداً ، واستسلموا بكليتهم إلى هذا الإله الواحد ، هم الذين سمعوا قول رسولهم لهم : ﴿ **ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ ..

فهى حقيقة واحدة يقوم عليها دين الله كله ، ويتعاقب بها الرسل جميعاً على مدار التاريخ .. فكل رسول يجيء إنما يقول هذه الكلمة لقومه الذين اجتالهم الشيطان عنها ، فنسوها وضلوا عنها ، وأشركوا مع الله آلهة أخرى على اختلاف هذه الآلهة فى الجاهليات المختلفة وعلى أساسها تدور المعركة بين الحق والباطل .. وعلى أساسها يأخذ الله المكذبين بها وينجى المؤمنين .. والسياق القرآنى يوحد الألفاظ التى عبر بها جميع الرسل صلوات الله عليهم مع اختلاف لغاتهم .. يوحد حكاية ما قالوه ، ويوحد ترجمته فى نص واحد : ﴿ **ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره** ﴾ .. وذلك لتحقيق معنى وحدة العقيدة السماوية على مدار التاريخ حتى فى صورتها اللفظية ! لأن هذه العبارة دقيقة فى التعبير عن حقيقة العقيدة ، ولأن عرضها فى السياق بذاتها يصور وحدة العقيدة تصويراً حسياً .. ولهذا كله دلالته فى تقرير المنهج القرآنى عن تاريخ العقيدة ..

وفى ضوء هذا التقرير يتبين مدى مفارقة منهج الأديان المقارنة مع المنهج القرآنى .. يتبين أنه لم يكن هناك تدرج ولا تطور فى مفهوم العقيدة الأساسى الذى جاءت به الرسل كلها من عند الله ، وأن الذين يتحدثون عن تطور المعتقدات وتدرجها ، ويدمجون العقيدة الربانية فى هذا التدرج والتطور يقولون غير ما يقوله الله سبحانه ! فهذه العقيدة كما نرى فى القرآن الكريم جاءت دائماً بحقيقة واحدة ، وحكيت العبارة عنها فى ألفاظ بعينها ﴿ **ياقوم اعبدوا الله مالكم من إلهٍ غيره** ﴾ وهذا الإله الذى دعا الرسل كلهم إليه هو رب العالمين .. الذى يحاسب الناس فى يوم عظيم .. فلم يكن هناك رسول من عند الله دعا إلى رب قبيلة أو رب أمة ، أو رب جنس .. كما أنه لم يكن هناك رسول من عند الله دعا إلى إلهين اثنين أو آلهة متعددة .. وكذلك لم يكن هناك رسول من عند الله دعا إلى عبادة طوطمية ، أو نجمية ، أو أرواحية ! أو صنمية ! ولم يكن هناك دين من عند الله ليس فيه عالم آخر .. كما يزعم

من يسمونهم علماء الأديان وهم يستعرضون الجاهليات المختلفة ، ثم يزعمون أن معتقداتها كانت هى الأديان التى عرفتها البشرية فى هذه الأزمان ، دون غيرها ! .

لقد جاءت الرسل .. رسولاً بعد رسول .. بالتوحيد الخالص ، وبربوبية رب العالمين ! وبالحساب فى يوم الدين .. ولكن الانحرافات فى خط الاعتقاد ، مع الجاهليات الطارئة بعد كل رسالة ، بفعل العوامل المعقدة المتشابكة فى تكوين الإنسان ذاته وفى العوالم التى يتعامل معها .. هذه الأنحرافات تمثلت فى صور شتى من المعتقدات الجاهلية .. هى هذه التى يدرسها علماء الأديان ثم يزعمون أنها الخط الصاعد فى تدرج الديانات وتطورها ! .

وعلى أية حال فهذا هو قول الله سبحانه وهو أحق أن يتبع . وبخاصة مَن يكتبون عن هذا الموضوع فى صدد عرض العقيدة الإسلامية ، أو صدد الدفاع عنها ! أما الذين لا يؤمنون بهذا القرآن ، فهم وما هم فيه ..

والله يقص الحق وهو خير الفاصلين ..

إن كل رسول من الرسل صلوات الله عليهم جميعاً قد جاء إلى قومه ، بعد انحرافهم عن التوحيد الذى تركهم عليه رسولهم الذى سبقه .. فبنو آدم الأوائل نشأو موحدين لرب العالمين ، كما كانت عقيدة آدم وزوجه ثم انحرفوا بفعل العوامل التى أسلفنا حتى إذا جاء نوح عليه السلام دعاهم إلى توحيد رب العالمين مرة أخرى ، ثم جاء الطوفان فهلك المكذبون ونجا المؤمنون ، وعمرت الأرض بهؤلاء الموحدين لرب العالمين كما علمهم نوح وبذراريهم ، حتى إذا طال عليهم الأمد انحرفوا إلى الجاهلية كما انحرف من كان قبلهم .. حتى إذا جاء هود أهلك المكذبون بالريح العقيم .. ثم تكررت القصة .. وهكذا .

ولقد أرسل كل رسول من هؤلاء إلى قومه ، فقال : ﴿ **ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره** ﴾ .. وقال كل رسول لقومه : ﴿ **إنى لكم ناصح أمين** ﴾ ، معبراً عن ثقل التبعة ، وخطورة ما يعلمه من عاقبة ماهم فيه من الجاهلية فى الدنيا والآخرة ، ورغبته فى هداية قومه ، وهو منهم وهم منه .. وفى كل مرة وقف الملأ من علية القوم وكبرائهم فى وجه كلمة الحق هذه ،

ورفضوا الاستسلام لله رب العالمين ، وأبو أن تكون العبودية والدينونة لله وحده وهى القضية التى قامت عليها الرسلات كلها وقام عليها دين الله كله وهنا يصدع كل رسول بالحق فى وجه الطاغوت .. ثم ينقسم قومه إلى أمتين متفاصلتين على أساس العقيدة ، وتنبتُّ وشيجة القومية ووشيجة القرابة العائلية ، لتقوم وشيجة العقيدة وحدها ، وإذا القوم الواحد ، أمتان متفاصلتان لا قربى بينهما ولا علاقة ! .. وعندئذ يجىء الفتح .. ويفصل الله بين الأمة المهتدية والأمة الضالة ، ويأخذ المكذبين المستكبرين ، وينجى الطائعين المستسلمين .. وما جرت سنة الله قط بفتح ولا فصل قبل أن ينقسم القوم الواحد إلى أمتين على أساس العقيدة ، وقبل أن يجهر أصحاب العقيدة بعبوديتهم لله وحده ، وقبل أن يثبتوا فى وجه الطاغوت بإيمانهم ، وقبل أن يعلنوا مفاصلتهم لقومهم .. وهذا مايشهد به تاريخ دعوة الله على مدار التاريخ .

إن التركيز فى كل رسالة كان على أمر واحد : هو تعبيد الناس كلهم لربهم وحده رب العالمين ذلك أن هذه العبودية لله الواحد ، ونزع السلطان كله من الطواغيت التى تدعيه ، هو القاعدة التى لا يقوم شىء صالح بدونها فى حياة البشر ، ولم يذكر القرآن إلا قليلاً من التفصيلات بعد هذه القاعدة الأساسية المشتركة فى الرسالات جميعاً ، ذلك أن كل تفصيل بعد قاعدة العقيدة فى الدين ، إنما يرجع إلى هذه القاعدة ولا يخرج عنها ، وأهمية هذه القاعدة فى ميزان الله هى التى جعلت المنهج القرآنى يبرزها هكذا ، ويفردها بالذكر فى استعراض موكب الإيمان ، بل فى القرآن كله .. ولنذكر كما قلنا فى التعريف بسورة الأنعام أن هذا كان هو موضوع القرآن المكى كله ، كما كان هو موضوع القرآن المدنى كلما عرضت مناسبة لتشريع أو توجيه .

إن لهذا الدين حقيقة ومنهجاً لعرض هذه الحقيقة ، والمنهج فى هذه الدين لا يقل أصالة ولا ضرورة عن الحقيقة فيه .. وعلينا أن نعرف الحقيقة الأساسية التى جاء بها هذا الدين ، كما أن علينا أن نلتزم المنهج الذى عرض به هذه الحقيقة .. وفى هذا المنهج إبراز وإفراد وتكرار وتوكيد لحقيقة التوحيد للألوهية .. ومن هنا ذلك التوكيد والتكرار والإبراز والإفراد لهذه القاعدة فى قصص هذه السورة ..

إن هذه القصص بصور طبيعة الإيمان وطبيعة الكفر فى نفوس البشر ، ويعرض نموذجاً مكرراً للقلوب المستعدة للإيمان ، ونموذجاً مكرراً للقلوب المستعدة للكفر أيضاً .. إن الذين آمنوا بكل رسول لم يكن فى قلوبهم الاستكبار عن الاستسلام لله والطاعة لرسوله ولـم يعجبوا أن يختار الله واحداً منهم ليبلغهم وينذرهم ، فأما الذين كفروا بكل رسول فقد كانوا هم الذين أخذتهم العزة بالإثم ، فاستكبروا أن ينزلوا عن السلطان المغتصب فى أيديهم لله صاحب الخلق والأمر ؛ وأن يسمعوا لواحد منهم كانوا هم الملأ من الحكام والكبار والوجهاء وذوى السلطان فى قومهم .. ومن هنا نعرف عقدة هذا الدين .. إنها عقدة الحاكمية والسلطان ، فالملأ كانوا يحسون دائماً ما فى قول رسولهم لهم : ﴿ **ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره** ﴾ .. ﴿ **ولكنى رسول من رب العالمين** ﴾ .. كانوا يحسون أن الألوهية الواحدة والربوبية الشاملة تعنى أول ما تعنى نزع السلطان المغتصب من أيديهم ، ورده إلى صاحبه الشرعى .. إلى الله رب العالمين .. وهذا ما كانوا يقاومون فى سبيله حتى يكونوا من الهالكين ! وقد بلغ من عقدة السلطان فى نفوسهم ألا ينتفع اللاحق منهم بالغابر ، وأن يسلك طريقة إلى الهلاك ، كما يسلك طريقه إلى جهنم كذلك ! .. إن مصارع المكذبين كما يعرضها هذا القصص تجرى على سنة لا تتبدل ، نسيان لآيات الله وانحراف عن طريقه إنذار من الله الغافلين على يد رسول ، استكبار عن العبودية لله وحده والخضوع لرب العالمين ، اغترار بالرخاء واستهزاء بالإنذار واستعجال للعذاب ، طغيان وتهديد وإيذاء للمؤمنين ، ثبات من المؤمنين ومفاصلة على العقيدة .. ثم المصرع الذى يأتى وفق سنة الله على مدار التاريخ ! .

وأخيراً : فإن طاغوت الباطل لا يطيق مجرد وجود الحق .. وحتى حين يريد الحق أن يعيش فى عزلة عن الباطل تاركاً مصيرهما لفتح الله وقضائه فإن الباطل لا يقبل منه هذا الموقف ، بل يتابع الحق وينازله ويطارده .. ولقد قال شعيب لقومه : ﴿ **وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أُرْسِلْتُ به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين** ﴾ .. ولكنهم لم يقبلوا منه هذه الخطة ، ولم يطيقوا رؤية الحق يعيش ، ولا رؤية جماعة تدين لله

وحده . وتخرج من سلطان الطواغيت : ﴿ **قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا** ﴾ ..
وهنا صدع شعيب بالحق رافضاً هذا الذى يعرضه عليهم الطواغيت : ﴿ **قال أو لو كنا كارهين قد افترينا على الله كذباً إن عُدْنا فى ملتكم بعد إذْ نجّانا الله منها ...** ﴾ ..

ذلك ليعلم أصحاب الدعوة إلى الله أن المعركة مع الطواغيت مفروضة عليهم فرضاً ، وأنه لا يجديهم فتيلاً أن يتقوها ويتجنبوها ، فالطواغيت لن تتركهم إلّا أن يتركوا دينهم كلية ، ويعودوا إلى ملة الطواغيت بعد إذ نجاهم الله منها ، وقد نجاهم الله منها بمجرد أن خلعت قلوبهم عنها العبودية للطواغيت ودانت بالعبودية لله وحده .. فلا مفر من خوض المعركة ، والصبر عليها ، وانتظار فتح الله بعد المفاصلة فيها ، وأن يقولوا مع شعيب : ﴿ **على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين** ﴾ ..

خشية الطغاة من يقظة الشعوب

قال تعالى :

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ

ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾
قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ
لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ
أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ
فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ
عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ
﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ
لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾
لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ
قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ
وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ
﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ
ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ
﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾
رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ
لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ

وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1]..

يقول سبحانه وتعالى لموسى وهارون :

اذهبا فأتيا فرعون فأخبراه بمهمتكما فى غير حذر ولا تلجلج فقولا له : إنا رسول رب العالمين ، وهما اثنان ولكنهما يذهبان فى مهمة واحدة برسالة واحدة ، فهما رسول . رسول رب العالمين ، فى وجه فرعون الذى يدعى الألوهية ، ويقول لقومه : ﴿ **ما علمت لكم من إله غيرى** ﴾ فهى المواجهة القوية الصريحة بحقيقة التوحيد منذ اللحظة الأولى ، بلا تدرج فيها ولا حذر ، فهى حقيقة واحدة لا تحتمل التدرج والمداراة .

﴿ **إنا رسول رب العالمين ۝ أن أرسل معنا بنى إسرائيل** ﴾ ..

وواضح من هذا ومن أمثاله فى قصة موسى عليه السلام فى القرآن أنه لم يكن رسولاً إلى فرعون وقومه ليدعوهم إلى دينه ويأخذهم بمنهج رسالته إنما كان رسولاً إليهم ليطلب إطلاق بنى إسرائيل ليعبدوا ربهم كما يريدون ، وقد كانوا أهل دين منذ أبيهم إسرائيل وهو يعقوب أبو يوسف عليهما السلام فبهت هذا الدين فى نفسوهم ، وفسدت عقائدهم فأرسل الله إليه موسى لينقذهم من ظلمه فرعون ويعيد تربيتهم على دين التوحيد .

ويعجب فرعون وهو يرى موسى يواجهه بهذهالدعوى الضخمة ، ويطلب إليه ذلك الطلب الضخم ! ﴿ **أن أرسل معنا بنى إسرائيل** ﴾ . فإن آخر عهده بموسى أنه كان ربيباً فى قصره منذ أن الْتَقَطُوا تابوته ، وأنه هرب بعد قتله للقبطى الذى وجده يتعارك مع الإسرائيلى ، وقيل : إن هذا القبطى كان من حاشية فرعون ، فما أبعد المسافة بين آخر عهد فرعون بموسى إذن وهذه الدعوى الضخمة التى يواجهه بها بعد عشر سنين ! ومن ثم بدأ فرعون متهكماً متسهزئاً مستعجباً :

---

(١) الشعراء : ١٦ - ٥١ .

﴿ قال ألمْ نُرَبِّك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين ﴾ ..

فهل هذا جزاء التربية والكرامة التى لقيتها عندنا وأنت وليد ؟ أن تأتى اليوم لتخالف ما نحن عليه من ديانة ؟ ولتخرج على الملك الذى نشأت فى بيته ، وتدعو إلى إله غيره ؟ .

وما بالك وقد لبثت فينا من عَمرك سنين لم تتحدث بشئ عن هذه الدعوى التى تدعيها اليوم ، ولم تخطرنا بمقدمات هذا الأمر العظيم ؟ .

وَيُذكِّرُهُ بحادث مقتل القبطى فى تهويل وتجسيم : **﴿ وفعلت فعلتك التى فعلت ﴾** .. فعلتك البشعة الشنيعة التى لا يليق الحديث عنها بالألفاظ المفتوحة ! فعلتها **﴿ وأنت من الكافرين ﴾** برب العالمين الذى تقول به اليوم ، فإنك لم تكن وقتها تتحدث عن رب العالمين ! .

وهكذا جمع فرعون كل ما حسبه ردا قاتلاً لا يملك موسى عليه السلام معه جواباً ، ولا يستطيع مقاومة ، وبخاصة حكاية القتل ، وما يمكن أن يعقبها من قصاص ، يتهدده به من وراء الكلمات ! .

ولكن موسى وقد استجاب الله دعاءه فأزال حُبْسَةَ لسانه انطلق يجيب :

﴿ قال فعلتها إذن وأنا من الضالين * ففرت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكماً وجعلنى من المرسلين * وتلك نعمة تَمُنُّها على أن عبَّدت بنى إسرائيل ﴾ ! ..

فعلت تلك الفعلة وأنا بعد جاهل ، اندفع اندفاع العصبية لقومى ، لا اندفاع العقيدة التى عرفتها اليوم بما أعطانى ربى من الحكمة : **﴿ ففررت منكم لما خفتكم ﴾** على نفسى ، فقسم الله لى الخير : ووهب لى الحكمة **﴿ وجعلنى من المرسلين ﴾** فلست بدعاً من الأمر ، إنما أنا واحد من الرعيل **﴿ من المرسلين ﴾** .

ثم يجيبه تهكماً بتهكم ، ولكن بالحق : **﴿ وتلك نعمة تَمُنُّها علىَّ أن عَبَّدت بنى إسرائيل ﴾** .. فما كانت تربيتى فى بيتك وليداً إلَّا من جراء استعبادك لبنى إسرائيل ، وقتلك أبناءهم ، مما اضطر أمى أن تلقينى فى التابوت ، فتقذف

بالتابوت فى الماء فتلتقطوننى ، فأربى فى بيتك ، لا فى بيت أبوىّ ، فهل هذا هو ما تمنه على ، وهل هذا هو فضلك العظيم ؟ .

عندئذ عدل فرعون عن هذه المسألة ، وراح يسأله عن صميم دعواه ، ولكن فى تجاهل وهزء وسوء أدب فى حق الله الكريم :

﴿ **قال فرعون وما رب العالمين** ﴾ ؟ .

إنه قَبَّحَه الله يسأل : أى شيء يكون رب العالمين الذى تقول : إنك من عنده رسول ؟ وهو سؤال المتنكر للقول من أساسه ، المتهكم على القول والقائل ، المستغرب للمسألة كلها حتى ليراها غير ممكنة التصور ، غير قابلة لأن تكون موضوع حديث ! .

فيجيبه موسى عليه السلام بالصفة المشتملة على ربوبيته تعالى للكون المنظور كله وما فيه :

﴿ **قال رب السمٰوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين** ﴾ ..

وهو جواب يكافئ ذلك التجاهل ويغطيه .. إنه رب هذا الكون الهائل الذى لا يبلغ إليه سلطانك يافرعون ولا علمك . وقصارى ما ادعاه فرعون إنه إلٰه هذا الشعب وهذا الجزء من وادى النيل ، وهو ملك صغير ضئيل . كالذرة أو الهباء فى ملكوت السمٰوات والأرض وما بينهما ، وكذلك كان جواب موسى عليه السلام يحمل استصغار ما يدعيه فرعون مع بطلانه ، وتوجيه نظره إلى هذا الكون الهائل ، والتفكير فيمن يكون ربه ، فهو رب العالمين ! ثم عقب على هذا التوجيه بما حكايته : ﴿ **إن كنتم موقنين** ﴾ فهذا وحده هو الذى يحسن اليقين به والتصديق .

والتفت فرعون إلى من حوله ، يعجبهم من هذا القول ، أو لعله يصرفهم عن التأثر به ، على طريقة الجبارين الذين يخشون تسرب كلمات الحق البسيطة الصريحة إلى القلوب :

﴿ **قال لمن حوله ألا تستمعون** ﴾ ؟ .

ألا تستمعون إلى هذا القول العجيب الغريب ، الذى لا عهد لنا به ، ولا قالهُ أحد نعرفه ! .

ولم يلبث موسى أن هجم عليه وعليهم بصفة أخرى من صفات رب العالمين .

﴿ **قال ربكم ورب آبائكم الأولين** ﴾ .

وهذه أشد مساساً بفرعون ودعواه وأوضاعه ، فهو يجيبه بأن رب العالمين هو ربه ، فما هو إلا واحد من عبيده ، لا إله كما يدعى بين قومه ، وهو رب قومه ، فليس فرعون ربهم كما يزعم عليهم ، وهو رب آبائهم الأولين ، فالوراثة التى تقوم عليها ألوهية فرعون دعوى باطلة ، فما كان من قبل إلا الله رباً للعالمين ! .

وإنها للقاصمة لفرعون ، فما يطيق عليها سكوتاً والملأ حوله يستمعون ، ومن ثم يرمى قائلها فى تهكم بالجنون :

﴿ **قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون** ﴾..

إن رسولكم الذى أرسل إليكم .. يريد أن يتهكم على مسألة الرسالة فى ذاتها ، فيبعد القلوب عن تصديقها بهذا التهكم ، لا أنه يريد الإقرار بها والاعتراف بإمكانها ، ويتهم موسى عليه السلام بالجنون ، ليذهب أثر مقالته التى تطعن وضع فرعون السياسى والدينى فى الصميم ، وترد الناس إلى الله ربهم ورب آبائهم الأولين .

ولكن هذا التهكم وهذا القذف لا يفت فى عضد موسى ، فيمضى فى طريقه يصدع بكلمة الحق التى تزلزل الطغاة والمتجبرين :

﴿ **قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون** ﴾ ..

والمشرق والمغرب مشهدان معروضان للأنظار كل يوم ، ولكن القلوب لا تنتبه إليهما لكثرة تكرارهما ، وشدة ألفتهما ، واللفظ يدل على الشروق والغروب ، كما يدل على مكانى الشروق والغروب .. وهذان الحدثان العظيمان لا يجرؤ فرعون ولا غيره من المتجبرين أن يدعى تصريفهما ، فمن يصرفهما إذن ومن ينشئها بهذا الاطراد الذى لا يتخلف مرة ولا يبطىء عن أجله المرسوم ؟ إن هذا التوجيه يهز القلوب البليدة هزاً ، ويوقظ العقول الغافية إيقاظاً ، وموسى عليه السلام يثير مشاعرهم ، ويدعوهم إلى التدبر والتفكير :

﴿ **إن كنتم تعقلون** ﴾ ..

والطغيان لا يخشى شيئاً كما يخشى يقظة الشعوب ، وصحوة القلوب ، ولا يكره أحداً كما يكره الداعين إلى الوعى واليقظة ، ولا ينقم على أحد كما ينقم على من يهزون الضمائر الغافية ، ومن ثم ترى فرعون يهيج على موسى ويثور ، عندما يمس بقوله هذا أوتار القلوب ، فينهى الحوار معه بالتهديد الغليظ بالبطش الصريح ، الذى يعتمد عليه الطغاة عندما يسقط فى أيديهم وتخذلهم البراهين :

﴿ قال لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين ﴾ ..

هذه هى الحجة وهذا هو الدليل : التهديد بأن يسلكه فى عداد المسجونين ، فليس السجن عليه ببعيد ، وما هو بالإجراء الجديد ! وهذا هو دليل العجز ، وعلامة الشعور بضعف الباطل أمام الحق الدافع ، وتلك سمة الطغاة وطريقهم فى القديم والجديد ! .

غير أن التهديد لم يفقد موسى رباطة جأشه .. وكيف وهو رسول الله ؟ والله معه ومع أخيه ؟ فإذا هو يفتح الصفحة التى أراد فرعون أن يغلقها ويستريح ، يفتحها بقول جديد ، وبرهان جديد :

﴿ قال أولو جئتك بشىء مبين ﴾ ..

وحتى لو جئتك ببرهان واضح على صدق رسالتى فإنك تجعلنى من المسجونين ؟ وفى هذا إحراج لفرعون أمام الملأ الذين استمعوا لما سبق من قول موسى ، ولو رفض الإصغاء إلى برهانه المبين لدل على خوفه من حجته ، وهو يدعى أنه مجنون ، ومن ثم وجد نفسه مضطراً أن يطلب منه الدليل :

﴿ قال فَأْتِ به إن كنت من الصادقين ﴾ ..

إن كنت من الصادقين فى دعواك ، أو إن كنت من الصادقين فى أن لديك شيئاً مبيناً ، فهو ما يزال يشكك فى موسى ، خيفة أن تترك حجته فى نفوس القوم شيئاً .

هنا كشف موسى عن معجزتيه الماديتين ، وقد أخرهما حتى بلغ التحدى من فرعون أقصاه :

﴿ فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ﴾ ..

والتعبير يدل على أن العصا تحولت فعلاً إلى ثعبان تدب فيه الحياة ، وأن يده حين نزعها كانت بيضاء فعلاً ، يدل على هذا بقوله : ﴿ **فإذا هى** ﴾ فلم يكن الأمر تخييلاً ، كما هو الحال فى السحر الذى لا يغير طبائع الأشياء ، إنما يخيل للحواس بغير الحقيقة .

ومعجزة الحياة التى تدب من حيث لا يعلم البشر ، معجزة تقع فى كل لحظة ، ولكن الناس لا يلقون لها بالاً ، لطول الألفة والتكرار ، أو لأنهم لا يشهدون التحول على سبيل التحدى فأما فى مثل هذا المشهد وموسى عليه السلام يلقى فى وجه فرعون بهاتين الخارقتين فالأمر يزلزل ويرهب .

وقد أحس فرعون بضخامة المعجزة وقوتها ، فأسرع يقاومها ويدفعها وهو يحس ضعف موقفه ، ويكاد يتملق القوم من حوله ، ويهيج مخاوفهم من موسى وقومه ، ليغطى على وقع المعجزة المزلزلة :

﴿ **قال الملأ حوله إن هذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون** ﴾ ..

وفى قولة فرعون هذه يبدو إقراره بعظمة المعجزة وإن كان يسميها سحراً ، فهو يصف صاحبها بأنه ساحر عليم ويبدو ذعره من تأثر القوم بها فهو يغريهم به : ﴿ **يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره** ﴾ ويبدو تضعضعه وتهاويه وتواضعه للقوم الذين يجعل نفسه لهم إلهاً ، فيطلب أمرهم ومشورتهم : ﴿ **فماذا تأمرون** ﴾ ؟ ومتى كان فرعون يطلب أمر أتباعه وهم له يسجدون ! .

وتلك شنشنة الطغاة حينما يحسون أن الأرض تتزلزل تحت أقدامهم ، عندئذ يلينون فى القول بعد التجبر ، ويلجئون إلى الشعوب وقد كانوا يدوسونها بالأقدام ، ويتظاهرون بالشورى فى الأمر وهم كانوا يستبدون بالهوى ، وذلك إلى أن يتجاوزوا منطقة الخطر ، ثم إذا هم جبابرة مستبدون ظالمون ! .

وأشار عليه الملأ ، وقد خدعتهم مكيدته ، وهم شركاء فرعون فى باطله ، وأصحاب المصلحة فى بقاء الأوضاع التى تجعلهم حاشية مقربة ذات نفوذ وسلطان ، وقد خافوا أن يغلبهم موسى وبنو إسرائيل على أرضهم لو اتبعتهم

الجماهير ، حين ترى معجزتى موسى وتسمع إلى ما يقول : أشاروا عليه أن يلقى سحره بسحر مثله بعد التهيئة والاستعداد :

﴿ قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل سحّار عليم ﴾ ..

أى أمهله وأخاه إلى أجل ، وابعث رسلك إلى مدائن مصر الكبرى يجمعون السحرة المهرة ، لإقامة مباراة للسحر بينهم وبينه .

وهنا يسدل الستار على هذا المشهد ليرفع على مشهد السحرة يحشدون ، والناس يجمعون للمباراة ، وتبث فيهم الحماسة للسحرة ومن خلفهم من أصحاب السلطان ، وتهيأ أرض المباراة بين الحق والباطل ، أو بين الإيمان والطغيان .

﴿ فجمع السحرة لميقات يوم معلوم * وقيل للناس هل أنتم مجتمعون * لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾ ..

وتظهر من التعبير حركة الإهاجة والتحميس للجماهير : **﴿ هل أنتم مجتمعون * لعلنا نتبع السحرة ﴾** .. هل لكم فى التجمع وعدم التخلف عن الموعد ليترقب فوز السحرة وغلبتهم على موسى الإسرائيلى ! والجماهير دائماً تتجمع لمثل هذه اللأمور ، دون أن تفطن إلى أن حكامها الطغاة يلهون بها ويعبثون ، ويشغلونها بهذه المباريات والاحتفالات والتجمعات ، ليلهوها عما تعانى من ظلم وكبت وبؤس ، وهكذا تجمع المصريون ليشهدوا المبارة بين السحرة وموسى عليه السلام ! .

ثم يجىء مشهد السحرة بحضرة فرعون قبل المبارة ، يطمئنون على الأجر والمكافأة إن كانوا هم الغالبين ، ويتلقون من فرعون الوعد بالأجر الجزيل والقربى من عرشه اللئيم ! .

ثم إذا مشهد المبارة الكبرى وأحداثه الجسام .. ويبدأ المشهد هادئاً عادياً ، إلا أنه يشى منذ البدء باطمئنان موسى إلى الحق الذى معه ، وقلة اكتراثه لجموع السحرة المحشودين من المدائن ، المستعدين لعرض أقصى ما يملكون من براعة ، ووراءهم فرعون وملؤه ، وحولهم تلك الجماهير المضللة المخدوعة يتجلى هذا الاطمئنان فى تركه إياهم يبدءون :

﴿ قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ﴾ ..

وفى التعبير ذاته ما يشى بالاستهانة : **﴿ ألقوا ما أنتم ملقون ﴾** بلا مبالاة ولا تحديد ولا اهتمام .

وحشد السحرة أقصى مهارتهم وأعظم كيدهم وبدأوا الجولة باسم فرعون وعزته :

﴿ فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴾ ..

ولا يفصل السياق هنا ما كان من أمر حبالهم وعصيهم ، كما فصله فى سورة الأعراف وطه ، ليبقى ظل الطمأنينة والثبات للحق ، وينتهى مسارعاً إلى عاقبة المبارة بين الحق والباطل ، لأن هذا هو هدف السورة الأصيل .

﴿ فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون ﴾ ..

ووقعت المفاجأة المذهلة التى لم يكن يتوقعها كبار السحرة ، فلقد بذلوا غاية الجهد فى فنهم الذى عاشوا به وأتقنوه ، وجاءوا بأقصى ما يملك السحرة أن يصنعوه ، وهم جمع كثير ، محشود من كل مكان ، وموسى وحده ، وليس معه إلا عصاه ، ثم إذا هى تلقف ما يأفكون ، واللقف أسرع حركة للأكل ، وعهدهم بالسحرة أن يكون تخييلاً ، ولكن هذه العصا تلقف حبالهم وعصيهم حقاً ، فلا تبقى لها أثراً ، ولو كان ما جاء به موسى سحراً ، لبقيت حبالهم وعصيهم بعد أن خيل لهم وللناس أن حية موسى ابتلعتها ، ولكنهم ينظرون فلا يجدونها فعلاً ! .

عندئذ لا يملكون أنفسهم من الإذعان للحق الواضح الذى لا يقبل جدلاً ، وهم أعرف الناس بأنه الحق :

﴿ فألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون ﴾ ..

وهم قد كانوا منذ لحظة مأجورين ينتظرون الجزاء من فرعون على مهارتهم ، ولم يكونوا أصحاب عقيدة ولا قضية ، ولكن الحق الذى مس قلوبهم قد حولهم تحويلاً ، لقد كانت هزة رجتهم رجًّا ، وخضتهم خضاً ، ووصلت إلى أعماق نفوسهم وقرارة قلوبهم ، فأزالت عنها ركام الضلال ، وجعلتها صافية حية خاشعة للحق ، عامرة بالإيمان ، فى لحظات قصار ، فإذا

هم يجدون أنفسهم ملقين سجداً ، بغير إرادة منهم ، تتحرك ألسنتهم ، فتنطلق بكلمة الإيمان ، فى نصاعة وبيان : ﴿ **آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون** ﴾ ..

وإن القلب البشرى لعجيب غاية العجب ، فإن لمسة واحدة تصادف مكانها لتبدله تبديلاً ، وصدق رسول الله (ﷺ) :

« ما من قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمٰن إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه »[1]..

وهكذا انقلب السحرة المأجورون ، مؤمنين من خيار المؤمنين ، على مرأى ومسمع من الجماهير الحاشدة ومن فرعون وملئه ، لا يفكرون فيما يعقب جهرهم بالإيمان فى وجه الطاغية من عواقب ونتائج ، ولا يعنيهم ماذا يفعل أو ماذا يقول .

ولابد أن كان لهذا الانقلاب المفاجئ وقع الصاعقة على فرعون وملئه ، فالجماهير حاشدة ، وقد عبأهم عملاء فرعون وهم يحشدونهم لشهود المبارة ، عبئوهم بأكذوبة أن موسى الإسرائيلى ، ساحر يريد أن يخرجهم من أرضهم بسحره ، ويريد أن يجعل الحكم لقومه ، وأن السحرة سيغلبونه ويفحمونه .. ثم هاهم أولاء يرون السحرة يلقون ما يلقون باسم فرعون وعزته ، ثم يلغبون حتى ليقرون بالغلب ، ويعترفون بصدق موسى فى رسالته من عند الله ، ويؤمنون برب العالمين الذى أرسله ، ويخلعون عنهم عبادة فرعون ، وهم كانوا منذ لحظة جنوده الذين جاءوا لخدمته ، وانتظروا أجره ، واستفتحوا بعزته ! .

وإنه لانقلاب يتهدد عرش فرعون ، إذ يتهدد الأسطورة الدينية التى يقوم عليها هذا العرش ، أسطورة الألوهية ، أو بنوته للآلهة كما كان شائعاً فى بعض العصور وهؤلاء هم السحرة ، والسحر كان حرفة مقدسة لا يزاولها إلا كهنة المعابد فى طول البلاد وعرضها ، هاهم أولاء يؤمنون برب العالمين ، رب موسى

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٩٩) ، و «موارد الظمآن» (٢٤١٩) ، و«الإتحاف» ٣٠٢/٧ وابن أبى عاصم ٩٨/١ ، والحاكم ٥٢٥/١ و ٣٢١/٤ ، و «الكنز» (١٦٨٤) ، و «الأسماء والصفات» (١٤٨) والآجرى فى «الشريعة» (٣١٦) ، وابن كثير ٥٧٦/٣ ، وابن عساكر ٢٢٨/٧ ، والطبرى ١٢٦/٣ و «المغنى عن حمل الأسفار» ٤٤/٣ ، وأحمد ١٨٢/٤ و«شرح السنة» ١٦٦/١ ، و «فى ظلال القرآن» ٢٥٩٦/٥ ونسبه للشيخان .

وهارون ، والجماهير تسير وراء الكهنة فى معتقداتهم التى يلهونهم بها ، فماذا يبقى لعرش فرعون من سند إلا القوة ؟ والقوة وحدها بدون عقيدة لا تقيم عرشاً ولا تحمى حكماً .

إن لنا أن نُقَدِّر ذعر فرعون لهذه المفاجأة ، وذعر الملأ من حوله ، إذا نحن تصورنا هذه الحقيقة ، وهى إيمان السحرة الكهنة هذا الإيمان الصريح الواضح القاهر الذى لا يملكون معه إلا أن يلقوا سجداً معترفين منيبين .

عندئذ جن جنون فرعون ، فلجأ إلى التهديد البغيض بالعذاب والنكال ، بعد أن حاول أن يتهم السحرة بالتآمر عليه وعلى الشعب مع موسى ! .

﴿ **قال آمنتم له قبل أن آذن لكم** ﴾ .. لم يقل آمنت به ، إنما عده استسلاماً له قبل إذنه ، على طريقة المناورات التى يدبرها صاحبها وهو مالك لإرادته ، عارف بهدفه ، مقدر لعاقبته ، و لم يشعر قلبه بتلك اللمسة التى مست قلوبهم ، ومتى كان للطغاة قلوب تشعر بمثل هذه اللمسات الوضيئة ؟ ثم سارع فى اتهامهم لتبرير ذلك الانقلاب الخطير : ﴿ **إنه لكبيركم الذى علمكم السحر** ﴾ وهى تهمة عجيبة لا تفسير لها إلا أن بعض هؤلاء السحرة وهم من الكهنة كانوا يتولون تربية موسى فى قصر فرعون أيام أن تبناه ، أو كان يختلف إليهم فى المعابد ، فارتكن فرعون إلى هذه الصلة البعيدة ، وقلب الأمر فبدلاً من أن يقول : إنه لتلميذكم قال : إنه لكبيركم ، ليزيد الأمر ضخامة وتهويلاً فى أعين الجماهير ! .

ثم جعل يهدد بالعذاب الغليظ بعد التهويل فيما ينتظر المؤمنين :

﴿ **فلسوف تعلمون * لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين** ﴾ ..

إنها الحماقة التى يرتكبها كل طاغية ، حينما يحس بالخطر على عرشه أو على شخصه ، يرتكبها فى عنف وغلظة وبشاعة ، بلا تحرج من قلب أو ضمير .. وإنها لكلمة فرعون الطاغية المتجبر الذى يملك تنفيذ ما يقول .. فما تكون كلمة الفئة المؤمنة التى رأت النور ! .

إنها كلمة القلب الذى وجد الله فلم يعد يحفل ما يفقد بعد هذا الوجدان ، القلب الذى اتصل بالله فذاق طعم العزة فلم يعد يحفل الطغيان ،

القلب الذى يرجو الآخرة فلا يهمه من أمر هذه الدنيا قليل ولا كثير :

﴿ قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون * إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين ﴾ ..

لا ضير ، لاضير فى تقطيع الأيدى والأرجل من خلاف لا ضير فى التصليب والعذاب ، لا ضير فى الموت والاستشهاد .. لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون .. وليكن فى هذه الأرض ما يكون ، فالمطمع الذى نتعلق به ونرجوه **﴿ أن يغفر لنا ربنا خطايانا ﴾** جزاء **﴿ أن كنا أول المؤمنين ﴾** .. وأن كنا نحن السابقين ..

يالله ! يالروعة الإيمان إذ يشرق فى الضمائر ، وإذ يفيض على الأرواح ، وإذا يكسب الطمأنينة فى النفوس ، وإذا يرتفع بسلالة الطين إلى أعلى عليين ، وإذ يملأ القلوب بالغنى والذخر والوفر ، فإذا كل ما فى الأرض تافه حقير زهيد .

هنا يسدل السياق الستار على هذه الروعة الغامرة ، لا يزيد شيئاً ، ليبقى للمشهد جلاله الباهر وإيقاعه العميق وهو يربى به النفوس فى مكة وهى تواجه الأذى والكرب والضيق ويربى به كل صاحب عقيدة يواجه بها الطغيان والعسف والتعذيب .

منطق الطغاة عندما يواجهون الحق

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾[١]..

هذا هو موقف اللقاء الأول . موسى ومعه آيات الله ، ومعه الهيبة المستمدة من الحق الذى بيده ، وفرعون وهامان وقارون ، ومعهم باطلهم الزائف وقوته الظاهرة ومركزهم الذى يخافون عليه من مواجهة الحق ذى السلطان .. عندئذ

---

(١) غافر : ٢٣ - ٢٤

لجأوا إلى الجدال بالباطل ليدحضوا به الحق : ﴿ **فقالوا ساحر كذاب** ﴾ ..

ويجمل السياق تفصيل ما حدث بعد هذا الجدال ، ويطوى موقف المبارة مع السحرة ، وإيمانهم بالحق الذى غلب باطلهم وَلَقِفَ ما يأفكون ، ويعرض الموقف الذى تلا هذه الأحداث :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ﴾[1]...

إنه منطق الطغيان الغليظ ، كلما أعوزته الحجة ، وخذله البرهان ، وخاف أن يستعلى الحق ، بما فيه من قوة وفصاحة ووضوح ، وهو يخاطب الفطرة فتصغى له وتستجيب ، كما استجاب السحرة الذين جىء بهم ليغلبوا موسى وما معه ، فانقلبوا أول المؤمنين بالحق فى مواجهة فرعون الجبار .

فأما فرعون وهامان وقارون فقالوا :

﴿ **اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم** ﴾ ..

ولقد كان فرعون فى أيام مولد موسى قد أصدر مثل هذا الأمر ، وهناك أحد احتمالين فيما حدث بعد ذلك الأمر الأول .. الاحتمال الأول : أن فرعون الذى أصدر ذلك الأمر كان قد مات وخلفه ابنه أو ولى عهده ، ولم يكن الأمر منفذاً فى العهد الجديد ، حتى جاء موسى وواجه الفرعون الجديد ، الذى كان يعرفه وهو ولى للعهد ، ويعرف تربيته فى القصر ، ويعرف الأمر الأول بتذبيح الذكور وترك الإناث من بنى إسرائيل ، فحاشيته تشير إلى هذا الأمر ، وتوحى بتخصيصه بمن آمنوا بموسى ، سواء كانوا من السحرة أو من بنى إسرائيل القلائل الذين استجابوا له على خوف من فرعون وملئه والاحتمال الثانى : أنه كان فرعون الأول الذى تبنى موسى ما يزال على عرشه ، وقد تراخى فى تنفيذ الأمر الأول بعد فترة أو وقف العمل به بعد زوال حدته ، فالحاشية تشير بتجديده ، وتخص به الذين آمنوا مع موسى وحدهم للإرهاب والتخويف .

---

(١) غافر : ٢٥ .

فأما فرعون فكان له فيما يبدو رأى آخر ، أو اقتراح إضافى فى أثناء التآمر ، ذلك أن يتخلص من موسى نفسه فيستريح ! .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾[1]

ويبدو من قوله : ﴿ **ذرونى أقتل موسى** ﴾ .. أن رأيه هذا كان يجد ممانعة ومعارضة من ناحية الرأى كأن يقال مثلاً : إن قتل موسى لا ينهى الإشكال ، فقد يوحى بهذا للجماهير بتقديسه واعتباره شهيداً ، والحماسة الشعورية له وللدين الذى جاء به ، وبخاصة بعد إيمان السَّحَرَة فى مشهد شعبى جامع ، وإعلانهم سبب إيمانهم ، وهم الذين جىء بهم لِيُبْطِلُوا عمله ويناوءوه .. وقد يكون بعض مستشارى الملك أَحَسَّ فى نفسه رهبة أن ينتقم إله موسى له ، ويبطش بهم ، وليس هذا ببعيد ، فقد كان الوثنيون يعتقدون بتعدد الآلهة ، ويتصورون بسهولة أن يكون لموسى إله ينتقم له ممن يعتدون عليه ! ويكون قول فرعون : ﴿ **وليدع ربه** ﴾ رداً على هذا التلويح ! وإن كان لا يبعد أن هذه الكلمة الفاجرة من فرعون ، كانت تَبَجحاً واستهتاراً ، لقى جزاءه فى نهاية المطاف ..

ولعلَّه من الطريف أن نقف أمام حُجَّةِ فرعون فى قتل موسى :

﴿ **إنى أخاف أن يُبَدِّلَ دينكم أو أن يُظْهِرَ فى الأرض الفساد** ﴾ .

فهل هناك أطرف من أن يقول فرعون الضال الوثنى ، عن موسى رسول الله عليه السلام ﴿ **إنى أخاف أن يُبَدِّلَ دينكم أو أن يُظْهِرَ فى الأرض الفساد** ﴾ ؟!! .

أليست هى بعينها كلمة كل طاغية مُفْسدٍ عن كل داعية مصلح ؟ أليست هى بعينها كلمة الباطل الكالح فى وجه الحق الجميل ؟ أليست هى بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر فى وجه الإيمانِ الهادئ ؟ .

إنه منطق واحد ، يتكرر كلما التقى الحق والباطل ، والإيمان والكفر ،

---

(١) غافر : ٢٦ .

والصلاح والطغيان على توالى الزمان واختلاف المكان ، والقصة قديمة مكررة تعرض بين الحين والحين .

فأما موسى عليه السلام فالتجأ إلى الركن الركين والحصن الحصين ، ولاذ بالجناب الذى يحمى اللائذين ، ويجير المستجيرين :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾[1]..

قالها واطمأن وسلَّم أمره إلى المستعلى على كل متكبر ، القاهر لكل متجبر ، القادر على حماية العائذين به من المستكبرين ..

إصرار الطاغوت على الباطل

تكشف مواجهة موسى لفرعون وملئه عن حقيقة المعركة بين دين الله كله وبين الجاهلية كلها ، وتبين كيف ينظر الطاغوت إلى هذا الدين ، وكيف يحسن فيه الخطر على وجوده ، كما تبين كيف يدرك المؤمنون حقيقة المعركة بينهم وبين الطاغوت ! .

إنه بمجرد أن قال موسى عليه السلام لفرعون : ﴿ **يافرعون إنى رسول من رب العالمين * حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم بِبَيِّنةٍ من ربكم فَأَرْسِلْ معى بنى إسرائيل** ﴾ .. تبين مدلول هذه الدعوة إلى رب العالمين .. إنه رد السلطان كله إلى الله بِرَدِّ عبودية العالمين كلها إلى رب العالمين ! وبناء على هذا المدلول طلب موسى إطلاق سراح بنى إسرائيل ، فإنه إذ كان الله رب العالمين ، فما يكون لعبد من عبيده – وهو فرعون المتجبر الطاغى – أن يعبدهم لنفسه ، فهم ليسوا عبيداً إلا لرب العالمين .. إن رد الربوبية كلها لله سبحانه معناه رد الحاكمية كلها له ، فالحاكمية هى مظهر ربوبية الله للناس – وهم من العالمين – وهى تتجلى فى العالمين كذلك بخضوعهم لله وحده ، فلا يكون الناس معترفين بربوبية الله لهم إلا إذا خضعوا له وحده ، وإلا إذا خلصت عبوديتهم لهذه الربوبية .. أو بتعبير آخر لهذه

---

(١) غافر : ٢٧ .

الحاكمية .. وإلا فقد أنكروا ربوبية الله لهم متى خضعوا لحاكمية أحد غيره ، لا يحكمهم بشرعه .

ولقد أدرك فرعون وملؤه خطر الدعوة إلى رب العالمين ، وأحسوا أن توحيد الربوبية معناه سلب سلطان فرعون – وسلطانهم المستمد منه – فعبروا عن هذا الخطر بأن موسى يريد أن يخرجهم من أرضهم : ﴿ **قال الملأ من قوم فرعون إنَّ هذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون** ﴾ .. ﴿ **وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك** ﴾ .. وما أرادوا إلا أن هذه الدعوة إلى رب العالمين لا تحمل إلا مدلولاً واحداً هو انتزاع السلطان من يد العبيد – الطواغيت – ورده إلى صاحبه سبحانه وهذا معناه من وجهة نظرهم الإفساد فى الأرض ! أو كما يقال اليوم فى قوانين الجاهلية لمثل هذه الدعوة بذاتها : إنها محاولة لقلب نظام الحكم ! ومن وجهة نظر الطواغيت الجاهلية التى تغتصب سلطان الله – أى تغتصب ربوبيته وتزاول اختصاصاتها ولو لم تقل هذا باللسان – يكون هذا قلباً لنظام الحكم ، لأن نظام الحكم فى الجاهليات يقوم على ربوبية عبد من العبيد لبقية العبيد ، بينما الدعوة إلى رب العالمين تعنى أن تكن الربوبية على العبيد لخالق العبيد ! وكذلك قال فرعون للسحرة الذين بهرهم الحق فآمنوا برب العالمين ، وخلعوا ربقة العبودية له بهذا الإعلان : إنهم يمكرون لإخراج أهل المدينة من مدينتهم ، وَهَدَّدَهُم بأبشع العذاب والنكال : ﴿ **قال فرعون آمنتم إنَّ قبل أن آذن لكم إن هذا لمكرو مكرتموه فى المدينة لتُخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون * لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خِلاف ثم لَأُصَلِّبَنَّكُم أجمعين** ﴾ .

ومن الجانب الآخر كان هؤلاء السحرة الذين آمنوا برب العالمين ، وأسلموا لله وحده ، وأعلنوا الخروج من العبودية الزائفة للطاغوت المغتصب للربوبية واختصاصاتها .. كانوا يعلمون حقيقة المعركة بينهم وبين الطاغوت ، إنها المعركة على العقيدة ، لأن هذه العقيدة تهدد سلطان الطواغيت بمجرد إعلان أصحابها لأن عبوديتهم خالصة لرب العالمين ، بل بمجرد إعلان أن الله رب العالمين ! ومن ثم قالوا لفرعون رداً على اتهامه لهم بأن هذا مكر مكروه

فى المدينة ليخرجوا منها أهلها وهو مرادف للاتهام فى الجاهليات الحديثة لكل من يعلن ربوبية الله للعالمين بمعناها الجاد بأنه يعمل على قلب نظام الحكم ! .. : ﴿ **وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا** ﴾ .. ثم لجئوا إلى ربهم الذى آمنوا به فتمردوا على العبودية لغيره قائلين : ﴿ **ربنا أَفْرِغْ علينا صَبْراً وتَوَفّنا مُسلمين** ﴾ .. فكان هذا فرقاناً جعله الله فى قلوبهم حين استقرت حقيقة الإسلام لله فيها .

ومن خلال عرض الآيات التى جاء بها موسى لفرعون وملئه ، وما أخذهم الله به من السنين ونقص الثمرات ، وما أرسله عليهم من الآفات ومواجهتهم لهذا كله بالعناد والمراوغة والإصرار فى النهاية على ما هم فيه حتى أهلكهم الله كما يقول تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥) فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ

﴿ فِي ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴾[1]...

من خلال عرض هذا كله يتبين مدى إصرار الطاغوت على الباطل فى وجه الحق ، ومدى مقاومته للدعوة إلى رب العالمين .. ذلك أنه يعلم علم اليقين أن هذه الدعوة بذاتها هى حرب عليه ، بإنكار شرعية قيامه من أساسه ! وما يمكن أن يسمح الطاغوت بإعلان إن لا إلٰه إلّا الله ، أو أن الله هو رب العالمين ، إلا حين تفقد هذه الكلمات مدلولها الحقيقى ، وتصبح مجرد كلمات لا مدلول لها .. وهى فى مثل هذه الحالة لا تؤذيه ! لأنها لا تعنيه ! فأما حين تأخذ عصبة من الناس هذه الكلمات جداً بمدلولها الحقيقى ، فإن الطاغوت الذى يزاول الربوبية بمزاولته للحاكمية بغير شرع الله ، وتعبيد الناس له بهذه الحاكمية وعدم إرسالهم لله لا يطيق هذه العصبة ، كما لم يطق فرعون دعوة موسى إلى رب العالمين ، وإعلان السحرة المؤمنين أنهم آمنوا برب العالمين ، وكما ظل هو والملأ من قومه مصرين على رد هذه الدعوة والآيات تتوالى عليهم ، والنكبات كذلك تتوالى عليهم من الجدب والآفات والجوع والبلاء .. ولكن هذا كله كان عندهم أيسر وأهون من التسليم بربوبية الله للعالمين ، لما تحويه من مدلول صريح بعزلهم هم عن مزاولة هذا السلطان المغتصب ، الذى يعبدون به الناس لغير رب العالمين ! .

سبب طغيان الطاغى

قال تعالى : ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا

---

(١) الأعراف : ١٣٠ - ١٣٦ .

﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾[1]...

الطغيان أمر لا ينبغي أن يكون ولا أن يبقى ، إنه أمر كريه ، مفسد للأرض ، مخالف لما يحبه الله ، مؤد إلى ما يكره .. فمن أجل منعه ينتدب الله عبداً من عباده المختارين ، ينتدبه بنفسه سبحانه ، ليحاول وقف هذا الشر ومنع هذا الفساد ، ووقف هذا الطغيان .. إنه أمر كريه شديد الكراهية حتى ليخاطب الله بذاته عبداً من عباده ليذهب إلى الطاغية ، فيحاول رده عما هو فيه ، والإعذار إليه قبل أن يأخذه الله تعالى نكال الآخرة والأولى ! .

﴿ اذهبْ إلى فرعونَ إنَّه طَغَى ﴾ .. ثم يعلمه الله كيف يخاطب الطاغية بأحب أسلوب وأشده جاذبية للقلوب ، لعله ينتهى ، ويتقى غضب الله وأخذه : **﴿ فقلْ هَل لكَ إلى إن تزكَّى ﴾** .. هل لك إلى أن تتطهر من رجس الطغيان ودنس العصيان ؟ هل لك إلى طريق الصلاة والبركة ؟ **﴿ وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾** .. هل لك أن أعرفك طريق ربك ؟ فإذا عرفته وقعت فى قلبك خشيته ، فما يطغى الإنسان ويعصى إلا حين يذهب عن ربه بعيداً ، وإلا حين يضل طريقه إليه فيقسو قلبه ويفسد ، فيكون منه الطغيان والتمرد ! .

كان هذا فى مشهد النداء والتكليف ، وكان بعده فى مشهد المواجهة والتبليغ ، والسياق لا يكرره فى مشهد التبليغ ، اكتفاء بعرضه هناك وذكره ،

(١) النازعات : ١٧ - ٤١ .

فيطوى ما كان بعد مشهد النداء ، ويختصر عبارة التبليغ فى مشهد التبليغ ، ويسدل الستار هنا ليرفعه على ختام مشهد المواجهة :

﴿ فأراهُ الآيةَ الكُبرى * فَكَذَّبَ وعَصَى ﴾ ..

لقد بلغ موسى ما كلف تبليغه ، بالأسلوب الذى لقنه ربه وعرفه ، ولم يفلح هذا الأسلوب الحبيب فى إِلَانَةِ القلبِ الطاغى الخاوى من معرفة ربه ، فأراه موسى الآية الكبرى ، آية العصا واليد البيضاء كما جاء فى المواضع الأخرى : ﴿ **فكذَّب وعصى** ﴾ .. وانتهى مشهد اللقاء والتبليغ عند التكذيب والمعصية فى اختصار وإجمال ! .

ثم يعرض مشهد آخر . مشهد فرعون يتولى عن موسى ، ويسعى فى جمع السحرة للمبارة بين السحر والحق ، حين عز عليه أن يستسلم للحق والهدى :

﴿ ثم أدبر يسعى * فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ ..

ويسارع السياق هنا إلى عرض قولة الطاغية الكافرة ، مجملاً مشاهد سعيه وحشره للسحرة وتفصيلاتها ، فقد أدبر يسعى فى الكيد والمحاولة ، فحشر السحرة والجماهير ، ثم انطلقت منه الكلمة الوقحة المتطاولة ، المليئة بالغرور والجهالة : ﴿ **أنا رَبُّكُم الأعلى** ﴾ ..

قالها الطاغية مخدوعاً بغفلة الجماهير وذلتها وطاعتها وانقيادها ، فما يخدع الطغاة شيء مثل ما تخدعهم غفلة الجماهير وذلتها وطاعتها وانقيادها ، وما الطاغية إلا فرد لا يملك فى الحقيقة قوة ولا سلطاناً ، إنما هى الجماهير الغافلة الذلول ، تُمَطِّى له ظهرها فيركب ! وتمد له أعناقها فَيَجُرُّ ! وتحنى له رءوسها فيستعلى ! وتتنازل له عن حقها فى العزة والكرامة فيطغى ! .

والجماهير تفعل هذا مخدوعة من جهة وخائفة من جهة أخرى ، وهذا الخوف لا ينبعث إلا من الوهم ، فالطاغية وهو فرد لا يمكن أن يكون أقوى من الألوف والملايين ، لو أنها شعرت بإنسانيتها وكرامتها وعزتها وحريتها ، وكل فرد فيها هو كفء للطاغية من ناحية القوة ولكن الطاغية يخدعها فيوهمها أنه يملك لها شيئاً ! وما يمكن أن يطغى فرد فى أمة كريمة أبداً ، وما يمكن أن يطغى فرد فى أمة رشيدة أبداً ، وما يمكن أن يطغى فرد فى أمة تعرف ربها وتؤمن به وتأبى أن تتعبد لواحد من خلقه لا يملك لها ضراً ولا رشداً ! .

فأما فرعون فوجد فى قومه من الغفلة ومن الذلة ومن خواء القلب من الإيمان ، ما جرؤ به على قول هذه الكلمة الكافرة الفاجرة : ﴿ **أنا ربكم الأعلى** ﴾ .. وما كان ليقولها أبداً لو وجد أمة واعية كريمة مؤمنة ، تعرف أنه عبد ضعيف لا يقدر على شىء . وإن يسلبه الذباب شيئاً لا يستنقذ من الذباب شيئاً ! .

وأمام هذا التطاول الوقح ، بعد الطغيان البشع ، تحركت القوة الكبرى :
﴿ **فَأَخذَهُ الله نكالَ الآخرة والأُولَى** ﴾ ..

ويقدم هنا نكال الآخرة على نكال الأولى .. لأنه أشد وأبقى ، فهو النكال الحقيقى الذى يأخذ الطغاة والعصاة بشدته وبخلوده ، ولأنه الأنسب فى هذا السياق الذى يتحدث عن الآخرة ويجعلها موضوعه الرئيسى ، ولأنه يتسق لفظياً مع الإيقاع الموسيقى فى القافية بعد اتساقه معنوياً مع الموضوع الرئيسى ، ومع الحقيقة الأصلية .

ونكال الأولى كان عنيفاً قاسياً ، فكيف بنكال الآخرة وهو أشد وأنكى ؟ وفرعون كان ذا قوة وسلطان ومجد موروث عريق ، فكيف بغيره من المكذبين ؟ وكيف بهؤلاء الذين يواجهون الدعوة من المشركين ؟ ..
﴿ **إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى** ﴾ ..

فالذى يعرف رَبَّهُ ويخشاه هو الذى يدرك ما فى حادث فرعون من العبرة لسواه ، أما الذى لا يعرف قلبه التقوى فبينه وبين العبرة حاجز ، وبينه وبين العظة حجاب ، حتى يصطدم بالعاقبة اصطداماً ، وحتى يأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، وكل ميسر لنهج ، وكل ميسر لعقابة ، والعبرة لمن يخشى ....

ومن هذه الجولة فى مصارع الطغاة المعتدين بقوتهم يعود إلى المشركين المعتزين بقوتهم كذلك ، فيردهم إلى شىء من مظاهر القوة الكبرى ، فى هذا الكون الذى لا تبلغ قوتهم بالقياس إليه شيئاً :

﴿ **أأنتم أَشَدُّ خلْقاً أم السماء بناها * رفع سَمْكَها فسوَّاها وأَغْطَشَ ليلها وأخرج ضُحاها * والأرضَ بعد ذلك دَحَاها * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها * متاعاً لكم ولأنعامكم** ﴾ ..

وهو استفهام لا يحتمل إلا إجابة واحدة بالتسليم الذى لا يقبل الجدل : ﴿ **أأنتم أشدُّ خلقاً أم السماء** ﴾ .. السماء ! بلا جدال ولا كلام ! فما الذى يخركم من قوتكم والسماء أشد خلقاً منكم ، والذى خلقها أشد منها ؟ هذا جانب من إيحاء السؤال ، وهناك جانب آخر ، فما الذى تستصعبونه من أمر بعثكم ؟ وهو خلق السماء وهى أشد من خلقكم ، وبعثكم هو إعادة لخلقكم ، والذى بنى السماء وهى أشد ، قادر على إعادتكم وهى أيسر ! .

هذه السماء الأشد خلقاً بلا مراء بناها ، والبناء يوحى بالقوة والتماسك ، والسماء كذلك ، متماسكة ، لا تختل ولا تتناثر نجومها وكواكبها ، ولا تخرج من أفلاكها ومداراتها ، ولا تتهاوى ولا تنهار ، فهى بناء ثابت وطيد متماسك الأجزاء .

﴿ **رفع سَمكها فسواها** ﴾ .. وسمك كل شيء قامته وارتفاعه ، والسماء مرفوعة فى تناسق وتماسك ، وهذه هى التسوية : ﴿ **فسواها** ﴾ .. والنظرة المجردة والملاحظة العادية تشهد بهذا التناسق المطلق ، والمعرفة بحقيقة القوانين التى تسمك بهذه الخلائق الهائلة وتنسق بين حركاتها وآثارها وتأثراتها ، توسع من معنى هذا التعبير ، وتزيد فى مساحة هذه الحقيقة الهائلة ، التى لم يدرك الناس بعلومهم إلا أطرافاً منها ، وقفوا تجاهها مبهورين ، تغمرهم الدهشة ، وتأخذهم الروعة ، ويعجزون عن تحليلها بغير افتراض قوة كبرى مدبرة مقدرة ، ولو لم يكونوا من المؤمنين بدين من الأديان إطلاقاً ! .

﴿ **وأغطش ليلها وأخرج ضحاها** ﴾ .. وفى التعبير شدة فى الجرس والمعنى ، يناسب الحديث عن الشدة والقوة ، أوغطش ليلها أى أظلمه ، وأخرج ضحاها أى أضاءها ..

﴿ **والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها** ﴾ ..

ودحو الأرض تمهيدها وبسط قشرتها ، بحيث تصبح صالحة للسير عليها ، وتكوين تربة تصلح للإنبات ، وإرساء الجبال وهو نتيجة لاستقرار سطح الأرض ووصول درجة حرارته إلى هذا الاعتدال الذى يسمح بالحياة . والله أخرج من الأرض ماءها سواء ما يتفجر من الينابيع ، أو ما ينزل من السماء

فهو أصلاً من مائها الذى تبخر ثم نزل فى صورة مطر ، وأخرج من الأرض مرعاها وهو النبات الذى يأكله الناس والأنعام وتعيش عليه الأحياء مباشرة وبالواسطة .

وكل أولئك قد كان بعد بناء السماء ، وبعد إغطاش الليل وإخراج الضحى ، والنظريات الفلكية الحديثة تقرب من مدلول هذا النص القرآنى حين تفترض أنه قد مضى على الأرض مئات الملايين من السنين ، وهى تدور دوراتها ويتعاقب الليل والنهار عليها قبل دحوها وقبل قابليتها للزرع ، وقبل استقرار قشرتها على ما هى عليه من مرتفعات ومستويات .

والقرآن يعلن أن هذا كله كان : ﴿ **متاعاً لكم ولأنعامكم** ﴾ .. فيذكر الناس بعظيم تدبير الله لهم من ناحية ، كما يشير إلى عظمة تقدير الله فى ملكه ، فإن بناء السماء على هذا النحو ، ودحو الأرض على هذا النحو أيضاً لم يكونا فلتة ولا مصادفة ، إنما كان محسوباً فيهما حساب هذا الخلق الذى سيستخلف فى الأرض ، والذى يقتضى وجوده ونموه ورقيه موافقات كثيرة جداً فى تصميم الكون ، وفى تصميم المجموعة الشمسية بصفة خاصة . وفى تصميم الأرض بصفة أخص .

والقرآن على طريقته فى الإشارة المجملة الموحية المتضمنة لأصل الحقيقة يذكر هنا من هذه الموافقات بناء السماوات ، وإغطاش الليل ، وإخراج الضحى ، ودحو الأرض وإخراج مائها ومرعاها ، وإرساء جبالها ، متاعاً للإنسان وأنعامه ، وهى إشارة توحى بحقيقة التدبير والتقدير فى بعض مظاهرها المكشوفة للجميع ، الصالحة لأن يخاطب بها كل إنسان ، فى كل بيئة وفى كل زمان ، فلا تحتاج إلى درجة من العلم والمعرفة ، تزيد على نصيب الإنسان حيث كان ، حتى يعم الخطاب بالقرآن لجميع بنى الإنسان فى جميع أطوار الإنسان ، فى جميع الأزمان .

وتقدير حقيقة التدبير والتقدير فى تصميم هذا الكون الكبير ، وحساب مكان للإنسان فيه ملحوظ فى خلقه وتطويره أمر يعد القلب والعقل لتلقى حقيقة الآخرة وما فيها من حساب وجزاء باطمئنان وتسليم ، فما يمكن أن يكون هذا هو واقع النشأة الكونية والنشأة الإنسانية ثم لا تتم تمامها ، ولا

تلقى جزاءها ، ولا يكون معقولاً أن ينتهى أمرها بنهاية الحياة القصيرة فى هذه العاجلة الفانية ، وأن يمضى الشر والطغيان والباطل ناجياً بما كان منه فى هذه الأرض ، وأن يمضى الخير والعدل والحق بما أصابه كذلك فى هذه الأرض .. فهذا الفرض مخالف فى طبيعته لطبيعة التقدير والتدبير الواضحة فى تصميم الكون الكبير ، ومن ثم تلتقى هذه الحقيقة التى لمسها السياق فى هذا المقطع بحقيقة الآخرة التى هى الموضوع الرئيسى فى السورة ، وتصلح تمهيداً لها فى القلوب والعقول ، يجىء بعده ذكر الطّامَّة الكبرى فى موضعه وفى حينه ! .

الهوى هو الدافع القوى لكل طُغْيان

قال تعالى :

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾[1]..

إن الحياة الدنيا متاع ، متاع مقدر بدقة وإحكام ، وفق تدبير يرتبط بالكون كله ونشأة الحياة والإنسان ، ولكنه متاع . متاع ينتهى إلى أجله .. فإذا جاءت الطامة الكبرى غطت على كل شىء ، وطمت على كل شىء ، على المتاع الموقوت ، وعلى الكون المتين المقدر المنظم ، على السماء المبنية والأرض المدحورة والجبال المرساة والأحياء والحياة وعلى كل ما كان من مصارع ومواقع ، فهى أكبر من هذه كله ، وهى تطم وتعم على هذا كله ! .

عندئذ يتذكر الإنسان ما سعى ، يتذكر سعيه ويستحضره ، إن كانت أحداث الحياة ، وشواغل المتاع أغفلته عنه ونسته إياه ، يتذكره ويستحضره

---

(١) النازعات : ٣٤ - ٤١ .

ولكن حيث لا يفيده التذكر والاستحضار إلا الحسرة والأسى وتصور ما وراءه من العذاب والبلوى ! .

﴿ **وبُرِّزت الجحيم لمن يرى** ﴾ .. فهى بارزة مكشوفة لكل ذى نظر ويشدد التعبير فى اللفظ « بُرِّزَت » تشديداً للمعنى والجرس ، ودفعاً بالمشهد إلى كل عين ! .

عندئذ تختلف المصائر والعواقب ، وتتجلى غاية التدبير والتقدير فى النشأة الأولى :

﴿ **فأما من طغى * وآثر الحياة الدنيا * فإن الجحيم هى المأوى** ﴾ ..

والطغيان هنا أشمل من معناه القريب ، فهو وصف لكل من يتجاوز الحق والهدى ، ومداه أوسع من الطغاة ذوى السلطان والجبروت ، حيث يشمل كل متجاوز للهدى . وكل من آثر الحياة الدنيا . واختارها على الآخرة ، فعمل لها وحدها ، غير حاسب للآخرة حساباً ، واعتبار الآخرة هو الذى يقيم الموازين فى يد الإنسان وضميره ، فإذا أهمل حساب الآخرة أو آثر عليها الدنيا اختلَّت كل الموازين فى يده ، واختلت كل القيم فى تقديره ، واختلت كل قواعد الشعور والسلوكِ فى حياته ، وَعُدَّ طاغياً وباغياً ومتجاوزاً للمدى .

فأما هذا ﴿ **فإن الجحيم هى المأوى** ﴾ .. الجحيم المكشوفة المبرزة القريبة الحاضرة ، يوم الطامة الكبرى ! .

﴿ **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى** ﴾ ..

والذى يخاف مقام ربه لا يقدم على معصية ، فإذا أقدم عليها بحكم ضعفه البشرى قاده خوف هذا المقام الجليل إلى الندم والاستغفار والتوبة ، فظل فى دائرة الطاعة .

ونهى النفس عن الهوى هو نقطة الارتكاز فى دائرة الطاعة ، فالهوى هو الدافع القوى لكل طغيان ، وكل تجاوز ، وكل معصية ، وهو أساس البلوى ، وينبوع الشر ، وقل أن يؤتى الانسان إلا من قبل الهوى ، فالجهل سهل علاجه ، ولكن الهوى بعد العلم هو آفة النفس التى تحتاج إلى جهاد شاق طويل الأمد لعلاجها .

والخوف من الله هو الحاجز الصلب أمام دفعات الهوى العنيفة ، وقل أن يثبت غير هذا الحاجز أمام دفعات الهوى ، ومن ثم يجمع بينهما السياق القرآنى فى آية واحدة ، فالذى يتحدث هنا هو خالق هذه النفس العليم بدائها ، الخبير بدوائها وهو وحده الذى يعلم دروبها ومنحنياتها ، ويعلم أين تكمن أهواؤها وأدواؤها ، وكيف تطارد فى مكامنها ومخابئها ! .

ولم يكلف الله الإنسان ألا يشتجر[1] فى نفسه الهوى ، فهو سبحانه يعلم أن هذا خارج عن طاقته ، ولكنه كلفه أن ينهاها ويكبحها ويمسك بزمامها ، وأن يستعين فى هذا بالخوف . الخوف من مقام ربه الجليل العظيم المهيب ، وكتب له بهذا الجهاد الشاق ، الجنة مثابة ومأوى : ﴿ **فإن الجنة هى المأوى** ﴾ ذلك أن الله يعلم ضخامة هذا الجهاد ، وقيمته كذلك فى تهذيب النفس البشرية وتقويمها ورفعها إلى المقام الأسنى .

إن الإنسان إنسان بهذا النهى ، وبهذا الجهاد ، وبهذا الارتفاع ، وليس إنساناً يترك نفسها لهواها ، وإطاعة جواذبه إلى دركها ، بحجة أن هذا مركب فى بيعته ، فالذى أودع نفسه الاستعداد لجيشان الهوى ، هو الذى أودعها الاستعداد للإمساك بزمامه ، ونهى النفس عنه ، ورفعها عن جاذبيته ، وجعل له الجنة جزاء ومأوى حين ينتصر ويرتفع ويرقى .

وهناك حرية إنسانية تليق بتكريم الله للإنسان ، تلك هى حرية الانتصار على هوى النفس والانطلاق من أسر الشهوة ، والتصرف بها فى توازن تثبت معه حرية الاختيار والتقدير الإنسانى ، وهنالك حرية حيوانية ، هى هزيمة الإنسان أمام هواه ، وعبوديته لشهوته ، وانفلات الزمام من إرادته ، وهى حرية لا يهتف بها إلا مخلوق مهزوم الإنسانية مستعبد يلبس عبوديته رداءً زائفاً من الحرية ! .

إن الأول هو الذى ارتفع وارتقى وتهيأ للحياة الرفيعة الطليقة فى جنة المأوى . أما الآخر فهو الذى ارتكس وانتكس وتهيأ للحياة فى درك الجحيم حيث تهدر إنسانيته ، ويرتد شيئاً توقد به النار التى وقودها الناس — من هذا الصنف — والحجارة ! .

---

(١) يشتجر : اشتجر الشيء : تداخل بعضه فى بعض — والقوم ، تخالفوا وتنازعوا .

وهذه وتلك هي المصير الطبيعى للارتكاس والارتقاء فى ميزان هذا الدين الذى يزن حقيقة الأشياء ..

صورة من صور الطغيان

قال تعالى :

﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[1]...

مصير رعيب بشع لأعداء الله الغافلين ، المتروكين فى عماهم يخبطون ، المخدوعين بمد الله لهم فى طغيانهم ، وإمهالهم بعض الوقت فى عدوانهم ، والمصير الرعيب ينتظرهم هنالك ، وهم غافلون يعمهون ! .

إن الله هو الذى يعلم حقيقة هذه القلوب .. وهو يذر المكذبين فى طغيانهم يعمهون ، لأنه يعلم منهم أنهم يستحقون جزاء التكذيب ، كما يعلم عنهم أنهم لا يتسجيبون ، لا يستجيبون ولو نزل إليهم الملائكة كما يقترحون ! ولو بعث لهم الموتى يكلمونهم كما اقترحوا كذلك ! ولو حشر الله عليهم كل شيء فى هذا الوجود يواجههم ويدعوهم إلى الإيمان ! .. إنهم لا يؤمنون ..

والذين يذرهم الله فى طغيانهم يعمهون ما فى تركهم فى عماهم من ظلم ، فهم الذين أغلقوا بصائرهم وأبصارهم ، وهم الذين عطلوا قلوبهم وجوارحهم وهم الذين غفلوا عن بدائع الخلق وأسرار الوجود ، وشهادة الأشياء التى يوجههم إليها وحينما امتد البصر فى هذا الكون وجد عجيبة ، وحينما فتحت العين وقعت على آية ، وحيثما التفت الإنسان إلى نفسه أو إلى ما يحيط به ، لمس الإعجاز فى تكوينه وفيما حوله من شيء ، فإذا عمه – أى عمى – عن هذا كله ، تُرِكَ فى عماه ، وإذا طغى بعد هذا كله وتجاوز الحق ترك فى طغيانه حتى يسلمه إلى البوار ..

وقال تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴾[2]...

---

(١) البقرة : ١٥ .   (٢) العلق : ٦ – ٨ .

إن الذى أعطاه فأغناه هو الله ، كما أنه هو الذى خلقه وأكرمه وعلَّمه ، ولكن الإنسان فى عمومه لا يستثنى إلا من يعصمه إيمانه لا يشكر حين يُعطى فيستغنى ، ولا يعرف مصدر النعمة التى أغنته ، وهو المصدر الذى أعطاه خلقه وأعطاه علمه ، ثم أعطاه رزقه ، ثم هو يطغى ويفجر ، ويبغى ويتكبر ، من حيث كان ينبغى أن يعرف ثم يشكر ...

وحين تبرز صورة الإنسان الطاغى الذى ينسى نشأته وأبطره الغنى ، يجىء التعقيب بالتهديد الملفوف : ﴿ **إن إلى ربك الرجعى** ﴾ فأين يذهب هذا الذى طغى واستغنى ؟ .

حوار بين الطغاة وأتباعهم

قال تعالى :

﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1] ...

(١) إبراهيم : ٢١ - ٢٢ .

لقد انتقلت الرواية .. رواية الدعوة والدعاة ، والمكذبين والطغاة انتقلت من مسرح الدنيا إلى مسرح الآخرة :

﴿ وبرزوا لله جميعاً ﴾ ..

الطغاة المكذبون وأتباعهم من الضعفاء المستذلين ، ومعهم الشيطان . برزوا مكشوفين ، وهم مشكوفون لله دائماً ، ولكنهم الساعة يعلمون ويحسون أنهم مشكوفون لا يحجبهم حجاب ، ولا يسترهم ساتر ، ولا يقيهم واق .. برزوا وامتلأت الساحة وَرُفِعَ الستار ، وبدأ الحوار :

﴿ فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ﴾ ..

والضعفاء هم الضعفاء ، هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم على الله حين تنازلوا عن حريتهم الشخصية فى التفكير والاعتقاد والاتجاه ، وجعلوا أنفسهم تبعاً للمستكبرين والطغاة ، ودانوا لغير الله من عبيده واختاروها على الدينونة لله ، والضعف ليس عذراً ، بل هو الجريمة ، فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفاً ، وهو يدعو الناس كلهم إلى حماه يعتزون به والعزة لله ، وما يريد الله لأحد أن ينزل طائعاً عن نصيبه فى الحرية التى هى ميزته ومناط تكريمه أو أن ينزل كارهاً ، والقوة المادية كائنة ما كانت لا تملك أن تستعبد إنساناً يريد الحرية ، ويستمسك بكرامته الآدمية ، فقصارى ما تملكه تلك القوة أن تملك الجسد ، تؤذيه وتعذبه وتكبله وتحبسه ، أما الضمير ، أما الروح ، أما العقل ، فلا يملك أحد حبسها ولا استذلالها ، إلا أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال ! .

من ذا الذى يملك أن يجعل أولئك الضعفاء تبعاً للمستكبرين فى العقيدة ، وفى التفكير ، وفى السلوك ؟ من ذا الذى يملك أن يجعل أولئك الضعفاء يدينون لغير الله ، والله هو خالقهم ورازقهم وكافلهم دون سواه ؟ لا أحد ، لا أحد إلا أنفسهم الضعيفة ، فهم ضعفاء لا لأنهم أقل قوة مادية من الطغاة . ولا لأنهم أقل جاهاً أو مالاً أو منصباً أو مقاماً .. كلا ، إن هذه كلها أعراض خارجية لا تعد بذاتها ضعفاً يلحق صفة الضعف بالضعفاء ، إنما هم ضعفاء

لأن الضعف فى أرواحهم وفى قلوبهم وفى نَخْوَتهم وفى اعتزازهم بأخص خصائص الإنسان ! .

إن المستضعفين كثرة ، والطواغيت قلة . فمن ذا الذى يُخْضِع الكثرة للقلة ؟ وماذا الذى يخضعها ؟ إنما يخضعها ضعف الروح ، وسقوط الهمة ، وقلة النخوة ، والتنازل الداخلى عن الكرامة التى وهبها الله لبنى الإنسان ! .

إن الطغاة لا يملكون أن يستذلوا الجماهير إلا برغبة هذه الجماهير ، فهى دائماً قادرة على الوقوف لهم لو أرادت ، فالإرادة هى التى تنقص هذه القطعان ! .

إن الذل لا ينشأ إلا عن قابلية للذل فى نفوس الأذلاء .. وهذه القابلية هى وحدها التى يعتمد عليها الطغاة !! والأذلاء هنا على مسرح الآخرة فى ضعفهم وتبعيتهم للذين استكبروا يسألونهم :

﴿ إنَّا كُنَّا لَكُم تبعاً فهلْ أَنتم مغنونَ عنَّا من عذابِ اللهِ من شيءٍ ﴾ ..

وقد اتبعناكم فانتهينا إلى هذا المصير الأليم ؟ .

أم لعلهم وقد رأوا العذاب يهمون بتأنيب المستكبرين على قيادتهم لهم هذه القيادة ، وتعريضهم إياهم للعذاب ؟ إن السياق يحكى قولهم وعليه طابع الذلة على كل حال ! .

ويرد الذين استكبروا على ذلك السؤال :

﴿ قَالُوا لو هَدانا اللهُ لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صَبرنا مالنَا من محيص ﴾ ..

وهو رد يبدو فيه البرم والضيق :

﴿ لو هدانا الله لهديناكم ﴾ ..

فعلام تلوموننا ونحن وإياكم فى طريق واحد إلى مصير واحد ؟ إننا لم نهتد ونضللكم . ولو هدانا الله لقدناكم إلى الهدى معنا ، كما قدناكم حين ضللنا إلى الضلال ! وهم ينسبون هداهم وضلالهم إلى الله ، فيعترفون الساعة بقدرته وكانوا من قبل ينكرونه وينكرونها ، ويستطيلون على الضعفاء استطالة من لا يحسب حساباً لقدرة القاهر الجبار ، وهم إنما يتهربون من تبعة الضلال والإضلال برجع الأمر لله .. والله لا يأمر بالضلال كما قال سبحانه : **﴿ إن**

الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ .. ثم هم يؤنبون الضعفاء من طرف خفى ، فيعلنونهم بأن لا جدوى من الجزع كما أنه لا فائدة من الصبر ، فقد حق العذاب ، ولا راد له من صبر أو جزع ، وفات الأوان الذى كان الجزع فيه من العذاب يجدى فيرد الضالين إلى الهدى ، وكان الصبر فيه على الشدة يجدى فتدركهم رحمة الله . لقد انتهى كل شيء ، ولم يعد هنالك مفر ولا محيص :

﴿ **سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص** ﴾ ! ..

لقد قُضِى الأمر ، وانتهى الجدل ، وسكت الحوار .. وهنا نرى على المسرح عجباً ، نرى الشيطان .. هاتف الغواية ، وحادى الغواة .. نراه الساعة يلبس مسوح الكهان ، أو مسوح الشيطان ! ويتشيطن على الضعفاء والمستكبرين سواء ، بكلام ربما كان أقسى عليهم من العذاب :

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1] ..

الله .. **الله** .. أما إن الشيطان حقاً لشيطان ، وأن شخصيته لتبدو هنا على أتمها كما بدت شخصية الضعفاء وشخصية المستكبرين فى هذا الحوار ..

إنه الشيطان الذى وَسْوَسَ فى الصدور ، وأغرى بالعصيان ، وزين الكفر ، وصدهم عن استماع الدعوة .. هو هو الذى يقول لهم وهو يطعنهم طعنة أليمة نافذة ، حيث لا يملكون أن يردوها عليه وقد قضى الأمر هو الذى يقول الآن ، وبعد فوات الأوان :

﴿ **إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم** ﴾ ! .

---

(١) إبراهيم : ٢٢ .

ثم يخزهم وخزة أخرى بتعييرهم بالاستجابة له ، وليس له عليهم من سلطان ، سوى أنهم تخلوا عن شخصياتهم ، ونسوا ما بينهم وبين الشيطان من عداء قديم ، فاستجابوا لدعوته الباطلة وتركوا دعوة الحق من الله :

﴿ وما كانَ لِى عليكُم من سلطانٍ إلّا أن دعوتكم فاستجبتم لى ﴾ !..

ثم يؤنبهم ، ويدعوهم لتأنيب أنفسهم ، يؤنبهم على أن أطاعوه .

﴿ فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ﴾ ! ..

ثم يخلى بهم ، وينفض يده منهم ، وهو الذى وعدهم من قبل وَمَنَّاهم ، وَوَسْوَسَ لهم أن لا غالب لهم ، فأمّا الساعة فما هو بملبيهم إذا صرخوا كما أنهم لن ينجدوه إذا صرخ :

﴿ ما أنا بمصرخكم وما أنتم بِمُصْرِخِىّ ﴾ ..

وما بيننا من صلة ولا ولاء !

ثم يبرأ من إشراكهم به ويكفر بهذا الإشراك :

﴿ إنّى كفرتُ بما أشركتمونِ من قبل ﴾ .. !

ثم ينهى خطبته الشيطانية بالقاصمة ينصبها على أوليائه :

﴿ إنَّ الظالمينَ لَهُم عذابٌ أليم ﴾ ! ..

فياللشيطان ! ويالهم من وليهم الذى هتف بهم إلى الغواية فأطاعوه ، ودعاهم الرسل إلى الله فكذبوهم وجحدوه ! .

أثر الطغيان فى الأرض

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾[1]...

(١) الفجر : ٦ – ١٤ .

وصيغة الاستفهام فى مثل هذا السياق أشد إثارة للبقظة والالتفات ، والخطاب للنبى (ﷺ) ابتداء ، ثم هو لكل من تتأتى منه الرؤية أو التبصر فى مصارع أولئك الأقوام ، وكلها مما كان المخاطبون بالقرآن أول مرة يعرفونه ومما تشهد به الآثار والقصص الباقية فى الأجيال المتعاقبة ، وإضافة الفعل إلى ربك فيها للمؤمن طمأنينة وَأُنْس وراحة ، وبخاصة أولئك الذين كانوا فى مكة يعانون طغيان الطغاة ، وعسف الجبارين من المشركين ، الواقفين للدعوة وأهلها بالمرصاد .

وقد جمع الله فى هذه الآيات القصار مصارع أقوى الجبارين الذين عرفهم التاريخ القديم .. مصرع : عاد إرم ، وهى عاد الأولى ، وقيل : إنها من العرب العاربة أو البادية ، وكان مسكنهم بالأحقاف وهى كثبان الرمال ، فى جنوبى الجزيرة بين حضرموت واليمن ، وكانوا بدواً ذوى خيام تقوم على عماد ، وقد وُصِفُوا فى القرآن بالقوة والبطش ، فقد كانت قبيلة عاد هى أقوى قبيلة فى وقتها وأميزها : ﴿ **التى لم يخلق مثلها فى البلاد** ﴾ فى ذلك الأوان ..

﴿ **وثمود الذين جابوا الصخر بالواد** ﴾ .. وكانت ثمود تسكن بالحجر فى شمال الجزيرة العربية بين المدينة والشام ، وقد قطعت الصخر وشيدته قصوراً كما نحتت فى الجبال ملاجىء ومغارات ..

﴿ **وفرعون ذى الأوتاد** ﴾ .. وهى على الأرجح الأهرامات التى تشبه الأوتاد الثابتة فى الأرض المتينة البنيان ، وفرعون المشار إليه هنا هو فرعون موسى الطاغية الجبار .

هؤلاء هم الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد .. وليس وراء الطغيا إلّا الفساد ، فالطغيان يفسد الطاغية ، ويفسد الذين يقع عليهم الطغيان سواء ، كما يفسد العلاقات والارتباطات فى كل جوانب الحياة ، ويحول الحياة عن خطها السليم النظيف ، المعمر البانى ، إلى خط آخر لا تستقيم معه خلافة الإنسان فى الأرض بحال ..

إنه يجعل الطاغية أسير هواه ، لأنه لا يفىء إلى ميزان ثابت ، ولا يقف عند حد ظاهر ، فيفسد هو أول من يفسد ، ويتخذ له مكاناً فى الأرض غير مكان العبد المستخلف ، وكذلك قال فرعون .. ﴿ **أنا ربكم الأعلى** ﴾ عندما

أفسده طغيانه ، فتجاوز به مكان العبد المخلوق ، وتطاول به إلى هذا الادعاء المقبوح وهو فساد أى فساد ..

ثم هو يجعل الجماهير أرقّاء أذلّاء ، مع السخط الدفين والحقد الكظيم ، فتتعضل فيهم مشاعر الكرامة الإنسانية ، وملكات الابتكار المتحررة التى لا تنمو فى غير جو الحرية ، والنفس التى تستذل تأسن وتتعفن ، وتصبح مرتعاً لديدان الشهوات الهابطة والغرائز المريضة ، وميدانا للانحرافات مع انطماس البصيرة والإدراك ، وفقدان الأريحية والهمة والتطلع والارتفاع ، وهو فساد أى فساد ..

ثم هو يحطم الموازين والقيم والتصورات المستقيمة ، لأنها خطر على الطغاة والطغيان ، فلابد من تزييف للقيم ، وتزوير فى الموازين ، وتحريف للتصورات كى تقبل صورة البغى البشعة ، وتراها مقبولة مستساغة .. وهو فساد أى فساد .

عَدْلُ الله فى أخذ الطغاة

فلما أكثرو فى الأرض الفساد ، كان العلاج هو تطهير وجه الأرض من الفساد :

﴿ فَصَبَّ عليهم رَبُّكَ سَوْطَ عذاب * إن ربك لَبِالْمِرْصَاد ﴾ ..

فربك راصد لهم وَمُسَجِّلٌ لأعمالهم ، فلما أن كَثُر الفساد وزاد صب عليهم سوط عذاب ، وهو تعبير يوحى بلذع العذاب حين يذكر السوط ، وبفيضه وغمره حين يذكر الصب ، حيث يجتمع الألم اللاذع والغمرة الطاغية ، على الطغاة الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد .

ومن رواء المصارع كلها تفيض الطمأنينة على القلب المؤمن وهو يواجه الطغيان فى أى زمان وأى مكان ، ومن قوله تعالى : ﴿ **إن ربك لبالمرصاد** ﴾ تفيض طمأنينة خاصة ، فربك هناك ، راصد لا يفوته شىء ، مراقب لايَنِدُّ عنه شىء ، فليطمئن بال المؤمن ، ولينم ملء جفونه ، فإن ربه هناك ! .. بالمرصاد .. للطغيان والشر والفساد ! ..

وهكذا نرى هنا نماذج من قدر الله فى أمر الدعوة ، غير النموذج الذى

تعرضه سورة البروج لأصحاب الأخدود ، وقد كان القرآن – ولا يزال – يربي المؤمنين بهذا النموذج وذاك . وِفْق الحالات والملابسات ، ويعد نفوس المؤمنين لهذا وذاك على السواء ، لتطمئن على الحالين ، وتتوقع الأمرين ، وتَكِل كل شيء لقدر الله يجريه كما يشاء .

﴿ **إن ربك لبالمرصاد** ﴾ .. يرى ويحسب ويحاسب ويجازى ، وفق ميزان دقيق لا يخطئ ولا يظلم ولا يأخذ بظواهر الأمور لكن بحقائق الأشياء .. فأما الإنسان فتخطئ موازينه وتضل تقديراته ، ولا يرى إلا الظواهر ، مالم يتصل بميزان الله ...

الطغاة الذين يعذبون الناس ويربصونهم بالقيود والأغلال سَيُفْعَل بهم كذلك يوم القيامة

قال تعالى :

﴿ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾[1] ..

والمجيء بجهنم .. نأخذ منه قربها منهم وقرب المعذبين منها وكفى . يرتسم من وراء هذه الآيات .. مشهد ترجف له القلوب . وتخشع له الأبصار ، والأرض تدك دكاً دكاً ! والجبار المتكبر يتجلى ويتولى الحكم والفصل ، ويقف الملائكة صفاً صفاً ، ثم يجاء بجهنم فتقف متأهبة هى الأخرى ! .

﴿ **يومئذ يتذكر الإنسان** ﴾ .. الإنسان الذى غفل عن حكمة الابتلاء بالمنع والعطاء ، والذى أكل التراث أكلاً لمَّا ، وأحب المال حباً جماً ، والذى

---

(١) الفجر : ٢٣ – ٢٦ .

لم يكرم اليتيم ولم يحض على طعام المسكين ، والذى طغى وأفسد وتولى .. يومئذ يتذكر ، يتذكر الحق ويتعظ بما يرى ، ولكن لقد فات الأوان ﴿ **وأنّى له الذكرى** ﴾ ؟ ولقد مضى عهد الذكرى ، فما عادت تجدى هنا فى دار الجزاء أحداً ! وإن هى إلا الحسرة على فوات الفرصة فى دار العمل فى الحياة الدنيا ! .

وحين تتجلى له هذه الحيقة : ﴿ **يقول ياليتنى قدمت لحياتى** ﴾ .. ياليتنى قدمت شيئاً لحياتى هنا ، فهى الحياة الحقيقية التى تستحق اسم الحياة ، وهى التى تستأهل الاستعداد والتقدمة والإدخار لها ، ياليتنى .. أمنية فيها الحسرة الظاهرة ، وهى أقسى ما يملكه الانسان فى الآخرة ! .

ثم يصور مصيره بعد الحسرة الفاجعة والتمنيات الضائعة : ﴿ **فيومئذ لا يعذب عذابه أحد * ولا يوثق وثاقه أحد** ﴾ .. إنه الله القهار الجبار ، الذى يعذب يومئذ عذابه الفذ الذى لا يملك مثله أحد ، والذى يوثق وثاقه الفذ الذى لا يوثق مثله أحد ، وعذاب الله ووثاقه يفصلهما القرآن فى مواضع أخرى فى مشاهد القيامة الكثيرة المنوعة فى ثنايا القرآن كله ، ويجملهما هنا حيث يصفهما بالتفرد بلا شبيه من عذاب البشر ووثاقهم ، أو من عذاب الخلق جميعاً ووثاقهم وذلك مقابل ما أسلف فى السورة من طغيان الطغاة ممثلين فى عاد وثمود وفرعون وإكثارهم من الفساد فى الأرض ، مما يتضمن تعذيب الناس وربطهم بالقيود والأغلال ، فها هو ذا ربك أيها النبى وأيها المؤمن يعذب ويوثق من كانوا يعذبون الناس ويوثقونهم ، ولكن شتان بين عذاب وعذاب ، ووثاق ووثاق .. وهان ما يملكه الخلق من هذا الأمر ، وجل ما يفعله صاحب الخلق والأمر ، فليكن عذاب الطغاة للناس ووثاقهم ما يكون ، فسيعذبون هم ويوثقون ، عذاباً ووثاقاً وراء التصورات والظنون ! .

مصيرُ الطُّغاةِ

قال تعالى :

﴿ هَٰذَا ذِكْرٌۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ

﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾[1]...

يتابع السياق خطاه مع عباد الله المتقين ، ومع المكذبين الطاغين إلى العالم الآخر وفى الحياة الباقية .. يتابعه فى مشهد من مشاهد القيامة نستعير لعرضه صفحات من كتاب مشاهد القيامة فى القرآن مع تصرف قليل :

يبدأ المشهد بمنظرين متقابلين تمام التقابل فى المجموع وفى الأجزاء ، وفى السِّمَاتِ والهيئات : منظر المتقين لهم حسن مآب ، ومنظَر الطاغين لهم شر مآب .

فأما الأولون فلهم جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ، ولهم فيها راحة الاتكاء ، ومتعة الطعام والشراب ، ولهم كذلك متعة الحوريات الشواب وهن مع شبابهن قاصرات الطرف لا يتطلعن ولا يمددن بأبصارهن ، وكلهن شواب أتراب ، وهو متاع دائم ورزق من عند الله ماله من نفاد .

وأما الآخرون فلهم مهاد ، ولكن لا راحة فيه ، إنه جهنم فبئس المهاد ! ولهم فيه شراب ساخن وطعام مقيىء . إنه ما يغسق ويسيل من أهل النار ! أولهم صنوف أخرى من جنس هذا العذاب ، يعبر عنها بأنها أزواج ! .

ثم يتم المشهد بمنظر ثالث حَيٍّ شاخص بما فيه من حوار : فها هى ذى جماعة من أولئك الطاغين من أهل جهنم ، كانت فى الدنيا متوادة متحابة ، فهى اليوم متناكرة متنابذة كان بعضهم يملى لبعض فى الضلال ، وكان بعضهم يتعلى على المؤمنين ، ويهزأ من دعوتهم ودعواهم فى النعيم ، كما يصنع الملأ من قريش وهم يقولون : ﴿ **أأنزل عليه الذكر من بيننا** ﴾ ؟ ..

---

(١) صٓ : ٤٩ – ٥٨ .

هاهم أولاء يقتحمون النار فوجاً بعد فوج وهاهم أولاء يقول بعضهم لبعض : ﴿ **هذا فوج مقتحم معكم** ﴾ .. فماذا يكون الجواب ؟ يكون الجواب فى اندفاع وحنق : ﴿ **لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار** ﴾ ! فهل يسكت المشتومون ؟ كلا ! إنهم يردون : ﴿ **قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار** ﴾ ! .. فلقد كنتم أنتم السبب فى هـذا العذاب ،وإذا دعوة فيها الحنق والضيق والانتقام : ﴿ **قالوا ربنا من قدم لنا هذا فَزِدْهُ عذاباً ضعفاً فى النار** ﴾ ! ..

وقال تعالى :

﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾[1]...

إنّ جهنم خلقت ووجدت وكانت مرصاداً للطاغين تنتظرهم وتترقبهم وينتهون إليها فإذا هى معدة لهم ، مهيأة لاستقبالهم ، وكأنما كانوا فى رحلة فى الأرض ثم آبوا إلى مأواهم الأصيل ! وهم يردون هذا المآب للإقامة الطويلة المتجددة أحقاباً بعد أحقاب :

﴿ **لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً** ﴾ .. ثم يستثنى .. فإذا الاستثناء أمرّ وأدهى : ﴿ **إلاّ حميماً وغساقاً** ﴾ .. إلا الماء الساخن يشوى الحلوق والبطون ، فهذا هو البرد ! وإلا الغساق الذى يغسق من أجساد المحروقين ويسيل ، فهذا هو الشراب ! .

﴿ **جزاءً وفاقاً** ﴾ .. يوافق ما أسلفوا وما قدموا .. ﴿ **إنهم كانوا لا يرجون حساباً** ﴾ .. ولا يتوقعون مآباً .. ﴿ **وكَذَّبوا بآياتنا كِذَّاباً** ﴾ ..

---

(١) النبأ : ٢١ – ٣٠ .

وجرس اللفظ فيه شدة توحى بشدة التكذيب وشدة الإصرار عليه .

بينما كان الله يحصى عليهم كل شيء إحصاء دقيقاً لا يفلت منه حرف : ﴿ وكل شيء أحصيناه كتاباً ﴾ ..

هنا يجيء التأنيب الميئس من كل رجاء فى تغيير أو تخفيف : ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلَّا عذاباً ﴾ ..

وقال تعالى :

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾[1]...

إن الحياة الدنيا متاع ، متاع مقدر بدقة وإحكام ، وفق تدبير يرتبط بالكون كله ونشأة الحياة والإنسان ،ولكنه متاع ، متاع ينتهى إلى أجله .. فإذا جاءت الطامة الكبرى غطت على كل شيء وطَمَّت على كل شيء ، على المتاع الموقوت ، وعلى الكون المتين المقدر المنظم ، على السماء المبنية والأرض المدحورة والجبال المرساة والأحياء والحياة وعلى كل ما كان من مصارع ومواقع ، فهى أكبر من هذا كله ، وهى تطم وتعم على هذا كله ! .

عندئذ يتذكر الإنسان ما سعى ، يتذكر سعيه ويستحضره ولكن حيث لا يفيده التذكر والاستحضار إلا الحسرة والأسى وتصور ما وراءه من العذاب والبلوى ! .

﴿ وبُرِّزَت الجحيم لمن يرى ﴾ .. فهى بارزة مكشوفة لكل ذى نظر ، ويشدد التعبير فى اللفظ « بُرِّزَت » تشديداً للمعنى والجرس ، ودفعاً بالمشهد إلى كل عين ! .

---

(١) النازعات : ٣٤ - ٤١ .

عندئذ تختلف المصائر والعواقب ، وتتجلى غاية التدبير والتقدير فى النشأة الأولى :

﴿ **فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى** ﴾ ..

والطغيان هنا أشمل من معناه القريب ، فهو وصف لكل من يتجاوز الحق والهدى ، ومداه أوسع من الطغاة ذوى السلطان والجبروت ، حيث يشمل كل متجاوز للهدى ، وكل من آثر الحياة الدنيا ، واختارها على الآخرة . فعمل لها وحدها ، غير حاسب للآخرة حساباً . واعتبار الآخرة هو الذى يقيم الموازين فى يد الإنسان وضميره ، فإذا أهمل حساب الآخرة أو آثر عليها الدنيا اختلت كل الموازين فى يده ، واختلت كل القيم فى تقديره ، واختلت كل قواعد الشعور والسلوك فى حياته ، وعد طاغياً وباغياً ومتجاوزاً للمدى .

فأما هذا .. ﴿ **فإن الجحيم هى المأوى** ﴾ .. الجحيم المشكوفة المبرزة القريبة الحاضرة ، يوم الطامة الكبرى ! .

وثمود وعاد وفرعون والمؤتفكات لما طغوا كان مصيرهم كما أخبر ربنا :

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾[1] ..

---

(١) الحاقة : ٥ - ١٢ .

وقال تعالى :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾[1]...

وردت قصة ثمود ونبيها صالح عليه السلام فى مواضع شتى من القرآن – وتحدث سيد قطب عنها فى كل موضع – فأما فى هذا الموضع فهو يذكر أن ثمود بسبب من طغيانها كذبت نبيها ، فكان الطغيان وحده هو سبب التكذيب ، وتمثل هذا الطغيان فى انبعاث أشقاها ، وهو الذى عقر الناقة ، وهو أشدها شقاء وأكثرها تعاسة بما ارتكب من الإثم ، وقد حذرهم رسول الله قبل الإقدام على الفعلة فقال لهم ، احذروا أن تمسوا ناقة الله أو أن تمسوا الماء الذى جعل لها يوماً ولهم يوماً كما اشترط عليهم عندما طلبوا منه آية فجعل الله هذه الناقة آية ولابد أنه كان لها شأن خاص لا نخوض فى تفصيلاته ، لأن الله لم يقل لنا عنه شيئاً فَكَذَّبُوا النذير فعقروا الناقة . والذى عقرها هو هذا الأشقى ، ولكنهم جميعاً حملوا التبعة وعُدّوا أنهم عقروها ، لأنهم لم يضربوا على يده ، بل استحسنوا فعلته ، وهذا مبدأ من مبادئ الإسلام الرئيسية فى التكافل فى التبعة الاجتماعية فى الحياة الدنيا ، لا يتعارض مع التبعة الفردية فى الجزاء الأخروى حيث لا تزر وازرة وزر أخرى ، على أنه من الوزر إهمال التناصح والتكافل والحض على البر والأخذ على يد البغى والشر .

عندئذ تتحرك يد القدرة لتبطش البطشة الكبرى : ﴿ **فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها** ﴾ ..

والدمدمة الغضب وما يتبعه من تنكيل ، واللفظ ذاته .. « دمدم » يوحى بما وراءه ، ويصور معناه بجرسه ، ويكاد يرسم مشهداً مروعاً مخيفاً ! وقد

---

(١) الشمس : ١١ – ١٥ .

سوى الله أرضهم عاليها بسافلها ، وهو المشهد الذى يرتسم بعد الدمار العنيف الشديد ..

﴿ **ولا يخاف عقباها** ﴾ .. سبحانه وتعالى .. ومن ذا يخاف ؟ وماذا يخاف ؟ وأنى يخاف ؟ إنما يراد من هذا التعبير لازمة المفهوم منه فالذى لا يخاف عاقبة ما يفعل ، يبلغ غاية البطش حين يبطش ، وكذلك بطش الله كان : إن بطش ربك لشديد ، فهو إيقاع يراد إيحاؤه وظله فى النفوس ..

وهكذا ترتبط حقيقة النفس البشرية بحقائق هذا الوجود الكبيرة ، ومشاهده الثابتة ، كما ترتبط بهذه وتلك سنة الله فى أخذ المكذبين والطغاة فى حدود التقدير الحكيم الذى يجعل لكل شىء أجلاً ، ولكل حادث موعداً ، ولكل أمر غاية ، ولكل قدر حكمة ، وهو رب النفس والكون والقدر جميعاً ..

الذين يؤمنون بالجبت والطاغوت

قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴾[١] ..

يمضى السياق فى التعجيب من أمر أولئك اليهود الذين يزكون أنفسهم بينما هم يؤمنون بالباطل وبالأحكام التى لا تستند إلى شرع الله ، وليس لها ضابط منه يعصمها من الطغيان : « الجبت والطاغوت » وبينما هم يشهدون للشرك والمشركين بأنهم أهدى من المؤمنين بكتاب الله ومنهجه وشريعته ، ويحمل عليهم بعد التعجيب من أمرهم ، وذكر هذه المخازى عنهم حملة عنيفة ،

---

(١) النساء : ٥١ – ٥٢ .

ويرذلهم ترزيلاً شديداً ، ويظهر كامن طباعهم من الحسد والبخل ، والأسباب الحقيقية التى تجعلهم يقفون هذا الموقف إلى جانب انحرافهم عن دين إبراهيم الذى يفخرون بالانتساب إليه وينهى هذه الحملة بتهديدهم بجهنم ﴿ **وكفى بجهنم سعيراً** ﴾ ..

لقد كان الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ، أولى الناس أن يتبعوا الكتاب وأن يكفروا بالشرك الذى يعتنقه من لم يأتهم من الله هدى ، وأن يُحَكِّموا كتاب الله فى حياتهم ، فلا يتبعوا الطاغوت وهو كل شرع لم يأذن به الله ، وكل حكم ليس له من شريعة الله سند ولكن اليهود الذين كانوا يزكون أنفسهم ، ويتباهون بأنهم أحباء الله كانوا فى الوقت ذاته يتبعون الباطل والشرك باتباعهم للكهانة وتركهم الكهان والأحبار يشرعون لهم مالم يأذن به الله . وكانوا يؤمنون بالطاغوت ، وهو هذا الحكم الذى يقوم على غير شريعة الله .. وهو طاغوت لما فيه من طغيان بادعاء الإنسان إحدى خصائص الألوهية وهى الحاكمية وبعدم انضباطه بحدود من شرع الله ، تلزمه العدل والحق ، فهو طغيان ، وهو طاغوت ، والمؤمنون به والمتبعون له ، مشركون أو كافرون .. يعجب الله من أمرهم ، وقد أوتوا نصيباً من الكتاب ، فلم يلتزموا بما أوتو من الكتاب ! .

ولقد كانوا يضيفون إلى الإيمان بالجِبْتِ والطَّاغوت ، موقفهم فى صف المشركين الكفار ، ضد المؤمنين الذين آتاهم الله الكتاب أيضاً :

﴿ **ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً** ﴾ ..

قال ابن إسحاق ، حدثنى محمد بن أبى محمد ، عن عكرمة — أو عن سعيد بن جبير — عن ابن عباس قال : كان الذين حَزَّبُوا الأحزاب من قريش وغطفان وبنى قريظة ، حُيَىّ بن أخطب ، وسلام بن العقيقى ، وأبو رافع ، والربيع بن الحقيق ، وأبو عامر ، ووحوح بن عامر ، وهودة بن قيس ، فأما وحوح وأبو عامر وهودة ، فمن بنى وائل ، وكان سائرهم من بنى النضير .. فلما قدموا على قريش قالوا : هؤلاء أحبار يهود ، وأهل العلم بالكتاب الأول ، فاسألوهم : أدينكم خير أم دين محمد ؟ فسألوهم ، فقالوا : دينكم خير من دينه ، وأنتم أهدى منه وممن اتبعه ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **ألم تر إلى الذين**

أوتوا نصيباً من الكتاب ﴾ .. إلى قوله عز وجل : ﴿ **وآتيناهم ملكاً عظيماً** ﴾ .. وهذا لعن لهم ، وإخبار بأنه لا ناصر لهم فى الدنيا ولا فى الآخرة . لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين ، وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرتهم ، وقد أجابوهم ، وجاءوا معهم يوم الأحزاب ، حتى حفر النبى (ﷺ) وأصحابه حول المدينة الخندق ، وكفى الله شرهم : ﴿ **ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً** ﴾ ..

وكان عجيباً أن يقول اليهود : إن دين المشركين خير من دين محمد ومن معه ، وإن المشركين أهدى سبيلاً من الذين آمنوا بكتاب الله ورسوله (ﷺ) ولكن هذا ليس بالعجيب من اليهود .. إنه موقفهم دائماً من الحق والباطل ، ومن أهل الحق وأهل الباطل .. إنهم ذوو أطماع لا تنتهى ، وذوو أهواء لا تعتدل ، وذو أحقاد لا تزول ! وهم لا يجدون عند الحق وأهله عوناً لهم فى شىء من أطماعهم وأهوائهم وأحقادهم ، إنما يجدون العون والنصرة دائماً عند الباطل وأهله ، ومن ثم يشهدون للباطل ضد الحق ، ولأهل الباطل ضد هل الحق ! .

هذه حال دائمة ، سببها كذلك قائم .. وكان طبيعياً منهم ومنطقياً أن يقولوا عن الذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً ! .

وهم يقولونها اليوم وغداً ، إنهم يشوهون بوسائل الدعاية والإعلام التى فى أيديهم كل حركة إسلامية ناجحة على ظهر الأرض ، ويعينون عليها أهل الباطل لتشويهها وتحطيمها بالضبط كما كانوا يعينون مشركى قريش ويستنصرون بهم فى الوقت ذاته لتشويه الحركة الإسلامية الأولى وتحطيمها .

ولكنهم أحياناً لخبثهم ولتمرسهم بالحيل الماكرة ولملابسات العصر الحديث قد لا يثنون ثناء مكشوفاً على الباطل وأهله ، بل يكتفون بتشويه الحق وأهله ، ليعينوا الباطل على هدمه وسحقه ، ذلك أن ثناءهم المكشوف فى هذا الزمان أصبح متهماً ، وقد يثير الشبهات حول حلفائهم المستورين ، الذين يعلمون لحسابهم ، فى سحق الحركات الإسلامية فى كل مكان ..

بل لقد يبلغ بهم المكر والحذق أحياناً ، أن يتظاهروا بعداوة وحرب

حلفائهم ، الذين يسحقون لهم الحق وأهله ، ويتظاهرون كذلك بمعركة كاذبة جوفاء من الكلام ، ليبعدوا الشبهة تماماً عن أخلص حلفائهم ، الذين يحققون لهم أهدافهم البعيدة ! .

ولكنهم لا يَكُفُّون أبداً عن تشويه الإسلام وأهله .. لأن حقدهم على الإسلام ، وعلى كل شَبَحٍ من بعيد لأى بعث إسلامى ، أضخم من أن يداروه ولو للخداع والتمويه ! .

إنها جِبِلَّةٍ واحدة ، وخِطَّةٍ واحدة ، وغايةٍ واحدة .. هى التى من أجلها يجبههم الله باللعنة والطرد ، وفقدان النصير ، والذى يفقد نصرة الله فما له من ناصر وما له من معين ولو كان أهل الأرض كلهم له ناصر ولكهم له معين :

﴿ أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً ﴾ ..

ولقد يهولنا اليوم أن نجد دول الغرب كلها نصيراً لليهود ، فنسأل : وأين وعد الله بأنه لعنهم ، وأن من يلعن الله فلن تجد له نصيراً ؟ .

ولكن الناصر الحقيقى ليس هو الناس ، ليس هو الدول ، ولو كانت تملك القنابل الأيدروجينية والصواريخ . إنما الناصر الحق هو الله ، القاهر فوق عباده : ومن هؤلاء العباد من يملكون القنابل الأيدروجينية والصواريخ !..

والله ناصر من ينصره .. **﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ الله من ينصره ﴾** والله معين من يؤمن به حق الإيمان ، ويتبع منهجه حق الاتباع ، ويتحاكم إلى منهجه فى رضى وفى تسليم ..

ولقد كان الله سبحانه يخاطب بهذا الكلام أمة مؤمنة به، مُتَّبِعة لمنهجه ، محتكمة إلى شريعته .. وكان يُهَوِّن من شأن عدوها – اليهود – وناصريهم ، وكان يعد المسلمين النصر عليهم لأنهم – اليهود – لا نصير لهم ، وقد حقق الله لهم وعده ، وعده الذى لا يناله إلا المؤمنون حقاً ، والذى لا يتحقق إلا على أيدى العصبة المؤمنة حين تقوم .

فلا يهولنا ما نلقاه من نُصْرَةِ المُلْحِدِين والمشركين والصليبيين لليهود فهم فى كل زمان ينصرونهم على الإسلام والمسلمين .. فليست هذه هى النصرة ..

ولكن كذلك لا يخدعننا هذا ، فإنما يتحقق هذا الأمر للمسلمين ! يوم يكونون مسلمين ! .

وليحاول المسلمون أن يُجَرِّبُوا مرة واحدة أن يكونوا مسلمين ثم يروا بأعينهم إن كان يبقى لليهود نصير أو أن ينفعهم هذا النصير ! .

عبادة اليهود للطاغوت

قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[1]..

وهنا تطالعنا سحنة يهود ، وتاريخ يهود ! .

إنهم هم الذين لعنهم الله وغضب عليهم ، وجعل منهم القردة والخنازير ، إنهم هم الذين عبدو الطاغوت ..

وقصة لعنة الله لهم وغضبه عليهم واردة فى مواضع شتى من القرآن الكريم ، وكذلك قصة جعله منهم القردة والخنازير .. فأما قضية عبادتهم للطاغوت ، فتحتاج إلى بيان هنا ، لأنها لفتة ذات دلالة خاصة فى سياق هذه السورة ..

إن الطاغوت هو كل سُلطان لا يُسْتَمَدُّ من سلطان الله ، وكل حُكْمٍ لا يقوم على شريعة الله ، وكل عدوان يتجاوز الحق .. والعدوان على سلطان الله وألوهيته وحاكميته هو أشنع العدوان وأشده طغياناً ، وأدخله فى معنى الطاغوت لفظاً ومعنى ..

وأهل الكتاب لم يعبدوا الأحبار والرهبان ، ولكن اتبعوا شرعهم وتركوا شريعة الله ، فسماهم الله عباداً لهم ، وسماهم مشركين .. وهذه اللفتة هنا

---

(١) المائدة : ٦٠ .

ملحوظ فيها ذلك المعنى الدقيق ، فهم عبدوا الطاغوت .. أى السلطات الطاغية المتجاوزة لحقها .. وهم لم يعبدوها بمعنى السجود لها والركوع ، ولكنهم عبدوها بمعنى الاتباع والطاعة ، وهى عبادة تخرج صاحبها من عبادة الله ومن دين الله ..

والله سبحانه يوجه رسوله (ﷺ) لمجابهة أهل الكتاب بهذا التاريخ ، وبذلك الجزاء الذى استحقوه من الله على هذا التاريخ .. كأنما هم جيل واحد بما أنهم جبلة واحدة .. يوجهه ليقول لهم : إن هذا شر عاقبة :

﴿ **قل هل أنبئكم بِشَرٍّ من ذلك مثوبة عند الله** ﴾ ..

أى شر من نقمة أهل الكتاب على المسلمين ، وما يكيدون لهم وما يؤذونهم بسبب إيمانهم ، وأين نقمة البشر الضعاف من نقمة الله وعذابه ، وحكمه على أهل الكتاب بالشر والضلال عن سواء السبيل :

﴿ **أولئك شَرٌّ مكاناً وأَضَلُّ عن سواء السبيل** ﴾ ..

اليهود تقول عن الوحى طغياناً وكفراً

قال تعالى :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ ﴾[1]..

وهذا نموذج من قولهم الإثم فى أبشع صورهم يحكى القرآن الكريم قول اليهود الغبى اللئيم ..

وذلك من سوء تصور يهود لله سبحانه ، فقد حكى القرآن الكريم الكثير من سوء تصورهم ذاك ، وقد قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء عندما سُئِلُوا النفقة ! وقالوا : يد الله مغلولة ، يعلّلون بذلك بخلهم ، فالله بزعمهم لا يعطى

(١) المائدة : ٦٤ .

الناس ولا يعطيهم إلا القليل .. فكيف ينفقون ؟ .

وقد بلغ من غلظ حسهم ، وجلافة قلوبهم ، ألا يعبروا عن المعنى الفاسد الكاذب الذى أرادوه وهو البخل بلفظه المباشر ، فاختاروا لفظاً أشد وقاحة وتهجماً وكفراً فقالوا : يد الله مغلولة ! .

ويجيىء الرد عليهم بإحقاق هذه الصفة عليهم ، ولعنهم وطردهم من رحمة الله جزاء على قولهم :

﴿ غُلَّتْ أيديهم وَلُعِنوا بما قالوا ﴾ ..

وكذلك كانوا ، فهم أبخل خلق الله بمال ! .

ثم يصحح هذا التصور الفاسد السقيم ، ويصف الله سبحانه بوصفه الكريم ، وهو يفيض على عباده من فضله بلا حساب :

﴿ بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ﴾ ..

وعطاياه التى لا تكف ولا تنفد لكل مخلوق ظاهرة للعيان .. شاهدة باليد المبسوطة ، والفضل الغامر ، والعطاء الجزيل ، ناطقة بكل لسان ، ولكن يهود لا تراها ، لأنها مشغولة عنها باللم والضم ، وبالكنود وبالجحود ، والبذاءة حتى فى حق الله ! .

ويحدث الله رسوله (ﷺ) عما سيبدو من القوم ، وعما سيحل بهم ، بسبب حقدهم وغيظهم من اصطفاه الله له بالرسالة وبسبب ما تشكفه هذه الرسالة من أمرهم فى القديم والحديث :

﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربِّك طُغياناً وكُفْراً ﴾ ..

فبسبب من الحقد والحسد ، وبسبب من افتضاح أمرهم فيما أنزل الله إلى رسوله ، سيزيد الكثيرون منهم طغياناً وكفراً ، لأنهم وقد أبوا الإيمان ، لابد أن يشتطوا فى الجانب المقابل ، ولابد أن يزيدوا تبجحاً ونكراً ، وطغياناً وكفراً ، فيكون الرسول (ﷺ) رحمة للمؤمنين ، ووبالاً على المنكرين .

وقال تعالى :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ

﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[1] ..

كان الله سبحانه يعلم أن مواجهتهم بهذه الحقيقة الحاسمة ، وبهذه الكلمة الفاصلة ، ستؤدى إلى أن تزيد كثيراً منهم طغياناً وكفراً ، وعناداً ولجاجاً .. ولكن هذا لم يمنع من أمر الرسول (ﷺ) أن يواجههم بها ، وألا يأسى على ما يصيبهم من الكفر والطغيان والضلال والشرود بسبب مواجهتهم بها ، لأن حكمته سبحانه تقتضى أن يصدع بكلمة الحق ، وأن تترتب عليها آثارها فى نفوس الخلق ، فيهتدى من يهتدى عن بينة ، ويضل من يضل عن بينة ، ويهلك من هلك عن بينة ويحيا من حىَّ عن بينة :

﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كثيراً منهم ما أُنزِلَ إليك من ربك طغياناً وكفراً فلا تأس على القوم الكافرين ﴾ ..

وكان الله سبحانه يرسم للداعية بهذه التوجيهات منهج الدعوة ويطلعه على حكمة الله فى هذا المنهج ، ويسلى قلبه عما يصيب الذين لا يهتدون إذا هاجتهم كلمة الحق فازدادوا طغياناً وكفراً ، فهم يستحقون هذا المصير البائس ، لأن قلوبهم لا تطيق كلمة الحق ، ولا خير فى أعماقها ولا صدق ، فمن حكمة الله أن تواجه بكلمة الحق ، ليظهر ما كمن فيها وما بطن ، ولتجهر بالطغيان والكفر ، ولتستحق جزاء الطغاة والكافرين ! .

ونعود إلى قضية الولاء والتناصر والتعاون بين المسلمين وأهل الكتاب على ضوء هذا التبليغ الذى كلفه رسول الله (ﷺ) وعلى ضوء نتائجه التى قدر الله أن تكون فى زيادة الكثيرين منهم طغياناً وكفراً .. فماذا نجد ؟ .

نجد أن الله سبحانه يقرر أن أهل الكتاب ليسوا على شىء حتى يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم .. وحتى يدخلوا فى الدين الأخير تبعاً لهذه الإقامة كما هو بديهى من دعوتهم إلى الإيمان بالله والنبى فى المواضع الأخرى المتعددة .. فهم إذن لم يعودوا على دين الله و لم يعودوا أهل دين يقبله الله .

---

(١) المائدة : ٦٨ .

ونجد أن مواجهتهم بهذه الحقيقة قد علم الله أنها ستزيد الكثيرين منهم طغياناً وكفراً .. ومع هذا فقد أمر رسوله أن يواجههم بها دون مواربة ، ودون أسى على ما سيصيب الكثيرين منها ! .

المنافقون هم الذين يتحاكمون إلى الطاغوت

قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾[1] ..

هؤلاء الذين يريدون أن يتحاكموا إلى غير شريعة الله – إلى الطاغوت – قد يكونون جماعة من المنافقين كما صرح بوصفهم فى الآية الثانية من هذه المجموعة وقد يكونون جماعة من اليهود الذين كانوا يدعون حين تجدّ لهم أقضية مع بعضهم البعض أو أهل المدينة إلى التحاكم إلى كتاب الله فيها .. التوراة

(١) النساء : ٦٠ – ٦٣ .

أحياناً ، وإلى حكم الرسول أحياناً كما وقع فى بعض الأقضية فيرفضون ويتحاكمون إلى العرف الجاهلى الذى كان سائداً .. ولكننا نرجح الفرض الأول لقوله فيهم : ﴿ **يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ .. واليهود لم يكونوا يسلمون أو يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إلى الرسول ، إنما كان المنافقون هم الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليه وما أنزل من قبله كما هو مقتضى العقيدة الإسلامية من الإيمان بالرسل كلهم .

وهذا لم يكن يقع إلا فى السنوات الأولى للهجرة ، قبل أن تخضد شوكة اليهود فى بنى قريظة وفى خيبر وقبل أن يتضاءل شأن المنافقين بانتهاء شأن اليهود فى المدينة ! .

على أية حال نحن نجد فى هذه المجموعة من الآيات ، تحديداً كاملاً دقيقاً حاسماً لشرط الإيمان وحد الإسلام ، ونجد شهادة من الله بعدم إيمان الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أُمِرُوا أن يكفروا به .. كما نجد قسماً من الله سبحانه بذاته العلية أنهم لا يدخلون فى الإيمان ، ولا يحسبون مؤمنين حتى يُحَكِّمُوا الرسول (ﷺ) فى أقضيتهم ، ثم يطيعوا حكمه ، وينفذوا قضاءه طاعة الرضى ، وتنفيذ الارتياح القلبى ، الذى هو التسليم ، لا عجزاً واضطراراً ، ولكن طمأنينة وارتضاء .

﴿ **ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أُمِرُوا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يُضلهم ضلالاً بعيداً** ﴾ ..

ألم تر إلى هذا العجب العاجب .. قوم .. يزعمون .. الإيمان ، ثم يهدمون هذا الزعم فى آن ؟ قوم يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك .. ثم لا يتحاكمون إلى ما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ؟ إنما يريدون أن يتحاكموا إلى شيء آخر ، وإلى منهج آخر ، وإلى حكم آخر .. يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت الذى لا يستمد مما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، ولا ضابط له ولا ميزان ، مما أنزل إليك وما أنزل من قبلك .. ومن ثم فهو طاغوت .. طاغوت بادعائه خاصية من خواص الألوهية ، وطاغوت بأنه لا يقف عند ميزان مضبوط أيضاً ! وهم لا يفعلون هذا عن جهل ، ولا عن

ظن .. إنما هم يعلمون يقيناً ويعرفون تماماً أن هذا الطاغوت محرم التحاكم إليه : ﴿ **وقد أمروا أن يكفروا به** ﴾ .. فليس فى الأمر جهالة ولا ظن ، بل هو العمد والقصد ، ومن ثم لا يستقيم ذلك الزعم ، زعم أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ! إنما هو الشيطان الذى يريد بهم الضلال الذى لا يرجى منه مآب ..

﴿ **ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً** ﴾ ..

فهذه هى العلة الكامنة وراء إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت ، وهذا هو الدافع الذى يدفعهم إلى الخروج من حد الإيمان وشرطه بإرادتهم التحاكم إلى الطاغوت ! هذا هو الدافع يكشفه لهم ، لعلهم ينتبهون فيرجعوا ، ويكشفه للجماعة المسلمة ، لتعرف من يحرك هؤلاء ويقف وراءهم كذلك .

ويمضى السياق فى وصف حالهم إذا ما دعوا إلى ما أنزل الله إلى الرسول وما أُنزِلَ من قبله .. ذلك الذى يزعمون أنهم آمنوا به :

﴿ **وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صُدُوداً** ﴾ ..

يا سبحان الله ! إن النفاق يأبى إلا أن يكشف نفسه ، ويأبى إلا أن يناقض بديهيات المنطق الفطرى .. وإلا ما كان نفاقاً ..

إن المقتضى الفطرى البديهى للإيمان ، أن يتحاكم الإنسان إلى ما آمن به ، وإلى من آمن به ، فإذا زعم أنه آمن بالله وما أنزل ، وبالرسول وما أُنزِلَ إليه ، ثم دعى إلى هذا الذى آمن به ، ليتحاكم إلى أمره وشرعه ومنهجه ، كانت التلبية الكاملة هى البديهية الفطرية ، فأما حين يصد ويأبى فهو يخالف البديهية الفطرية ويكشف عن النفاق ، وينبىء عن كذب الزعم الذى زعمه من الإيمان ! .

وإلى هذه البديهية الفطرية يحاكم الله سبحانه أولئك الذين يزعمون الإيمان بالله ورسوله ، ثم لا يتحاكمون إلى منهج الله ورسوله ، بل يصدون عن ذلك المنهج حين يدعون إليه صدوداً ! .

ثم يعرض مظهراً من مظاهر النفاق فى سلوكهم ، حين يقعون فى ورطة أو كارثة بسبب عدم تلبيتهم للدعوة إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، أو بسبب

ميلهم إلى التحاكم إلى الطاغوت ، ومعاذيرهم عند ذلك ، وهى معاذير النفاق :

﴿ فكيف إذا أصابتهم مُصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلَّا إحساناً وتوفيقاً ﴾ ..

وهذه المصيبة قد تصيبهم بسبب انكشاف أمرهم فى وسط الجماعة المسلمة يومذاك حيث يصبحون معرضين للنبذ والمقاطعة والازدراء فى الوسط المسلم ، فما يطيق المجتمع المسلم أن يرى من بينه ناساً يزعمون أنهم آمنوا بالله وما أُنزَل ، وبالرسول وما أُنزِل إليه ، ثم يميلون إلى التحاكم لغير شريعة الله ، أو يصدون حين يدعون إلى التحاكم إليها .. إنما يقبل مثل هذا فى مجتمع لا إسلام له ولا إيمان ، وكل ما له من الإيمان زعم كزعم هؤلاء ، وكل ما له من الإسلام دعوى وأسماء ! .

أو قد تصيبهم المصيبة من ظلم يقع بهم ، نتيجة التحاكم إلى غير نظام الله العادل ، ويعودون بالخيبة والندامة من الأحتكام إلى الطاغوت ، فى قضية من قضاياهم .

أو قد تصيبهم المصيبة ابتلاء من الله لهم ، لعلهم يتفكرون ويهتدون ..

وأياً ما كان سبب المصيبة ، فالنص القرآنى ، يسأل مستنكراً : فيكف يكون الحال حينئذ ! كيف يعودون إلى الرسول (ﷺ) :

﴿ يحلفون بالله إن أردنا إلَّا إحساناً وتوفيقاً ﴾ ..

إنها حال مخزية .. حين يعودون شاعرين بما فعلوا .. غير قادرين على مواجهة الرسول (ﷺ) بحقيقة دوافعهم ، وفى الوقت ذاته يحلفون كاذبين : أنهم ما أرادوا بالتحاكم إلى الطاغوت وقد يكون هنا هو عرف الجاهلية — إلا رغبة فى الإحسان والتوفيق ! وهى دائماً دعوى كل ما يحيدون عن الاحتكام إلى منهج الله وشريعته : أنهم يريدون اتقاء الإشكالات والمتاعب والمصاعب ، التى تنشأ من الاحتكام إلى شريعة الله ! ويريدون التوفيق بين العناصر المختلفة والاتجاهات المختلفة والعقائد المختلفة .. إنها حجة الذين يزعمون الإيمان ، وهم غير مؤمنين — وحجة المنافقين الملتوين .. وهى هى دائماً وفى كل حين ! .

والله سبحانه يكشف عنهم هذا الرداء المستعار ، ويخبر رسوله (ﷺ)

أنه يعلم حقيقة ما تنطوى عليه جوانحهم ، ومع هذا يوجهه إلى أخذهم بالرفق ، والنصح لهم بالكف عن هذا الالتواء :

﴿ أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فَأَعْرِضْ عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً ﴾ ..

أولئك الذين يخفون حقيقة نواياهم وبواعثهم ، ويحتجون بهذه الحجج ، ويعتذرون بهذه المعاذير ، والله يعلم خبايا الضمائر ومكنونات الصدور ولكن السياسة التى كانت متبعة فى ذلك الوقت مع المنافقين كانت هى الاغضاء عنهم ، وأخذهم بالرفق ، واطراد الموعظة والتعليم ..

والتعبير العجيب :

﴿ وقل لهم فى أنفسهم قولاً بلغياً ﴾ ..

تعبير مصور .. كأنما القول يودع مباشرة فى الأنفس ، ويستقر مباشرة فى القلوب .

وهو يرغبهم فى العودة والتوبة والاستقامة والاطمئنان إلى كنف الله وكنف رسوله .. بعد كل ما بدا منهم من الميل إلى الاحتكام إلى الطاغوت ، ومن الصدود عن الرسول (ﷺ) حين يدعون إلى التحاكم إلى الله والرسول .. فالتوبة بابها مفتوح ، والعودة إلى الله لم يفت أوانها بعد ، واستغفارهم الله من الذنب ، واستغفار الرسول لهم ، فيه القبول ! ولكنه قبل هذا كله يقرر القاعدة الأساسية ! وهى أن الله قد أرسل رسله ليطاعوا بإذنه لا ليخالف عن أمرهم ، ولا ليكونوا مجرد وعاظ ! ومجرد مرشدين ! .

الطغاة لا يزيدهم التذكير إلا طغياناً

قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾[1]..

---

(١) الإسراء : ٦٠ .

لقد ارتد بعض من كان آمن بالرسول (ﷺ) بعد حادثة الإسراء ، كما ثبت بعضهم وازداد يقيناً ، ومن ثم كانت الرؤيا التى أراها الله لعبده فى تلك الليلة فتنة للناس وابتلاء لإيمانهم ، أما إحاطة الله بالناس فقد كانت وعداً من الله لرسوله بالنصر ، وعصمة له من أن تمتد أيديهم إليه .

ولقد أخبرهم بوعد الله له وبما أطلعه الله عليه فى رؤياه الكاشفة الصادقة ، ومنه شجرة الزقوم التى يُخَوِّف الله بها المكذبين ، فكذبوا بذلك حتى قال أبو جهل متهكماً : هاتوا لنا تمراً وزبداً ، وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول : تزقموا فلا نعلم الزقوم غير هذا ! .

فماذا كانت الخوارق صانعة مع القوم لو كانت هى آية رسالته كما كانت علامة الرسالات قبله ومعجزة المرسلين ؟ وما زادتهم خارقة الإسراء ولا زادهم التخويف بشجرة الزقوم إلا طغياناً كبيراً ؟ .

إن الله لم يُقَدِّر إهلاكهم بعذاب من عنده ، ومن ثم لم يرسل إليهم بخارقة ، فقد اقتضت إرادته أن يهلك المكذبين بالخوارق ، أما قريش فقد أمهلت ولم تؤخذ بالإبادة كقوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ..

عِلم الله الأزلى بالطغاة والكفرة

قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾[1]..

فهذا الغلام الذى لا يبدو فى حاضره ومظهره أنه يستحق القتل ، قد كشف ستر الغيب عن حقيقته للعبد الصالح ، فإذا هو فى طبيعته كافر طاغ ، تكمن فى نفسه بذور الكفر والطغيان ، وتزيد على الزمن بروزاً وتحققاً .. فلو عاش لأرهق والديه المؤمنين بكفره وطغيانه ، وقادهما بدافع حبهما له أن يتبعاه فى طريقه ، فأراد الله ، وَوَجَّه إرادةعبده الصالح إلى قتل هذا الغلام الذى يحمل

(١) الكهف : ٨٠ - ٨١ .

طبيعة كافرة طاغية ، وأن يبدلهما الله خلفاً خيراً منه ، وأرحم بوالديه .

ولو كان الأَمْرُ مَوْكُولاً إلى العلم البشرى الظاهر ، لما كان له إلا الظاهر من أمر الغلام ، ولما كان له عليه من سلطان ، وهو لم يرتكب بعد ما يستحق عليه القتل شرعاً ، وليس لغير الله ولمن يطلعه من عباده على شيء من غيبه أن يحكم على الطبيعة المغيبة لفرد من الناس ، ولا أن يرتب على هذا العلم حكماً غير حكم الظاهر الذى تأخذ به الشريعة ، ولكنه أمر الله القائم على علمه بالغيب البعيد .

القرين يتبرأ من إطغاء قرينه

قال تعالى :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) ۞ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[1] ..

مشهد يكفى استحضاره فى النفس لتقضى رحلتها كلها على الأرض فى توجس وحذر وارتقاب ، وقد قال رسول الله (ﷺ) :

« كيف أنعم وصاحب القرن قد التَقَمَ القَرْن وَحَنى جبهته وانتظر أن يؤذن له ؟ » .

---

(١) ق : ٢٠ - ٢٩ .

قالوا : يارسول الله ، كيف نقول .
قال : « قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » ..
فقال القوم : حسبنا الله ونعم الوكيل ..[1].

﴿ **وجاءت كل نفسٍ معها سائق وشهيد** ﴾.. جاءت كل نفس فالنفس هنا هى التى تحاسب ، وهى التى تتلقى الجزاء ، ومعها سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها ، قد يكونان هما الكاتبان الحافظان لها فى الدنيا ، وقد يكونان غيرهما ، والأول أرجح ، وهو مشهد أشبه شيء بالسوق للمحاكمة ، ولكن بين يدى الجبار .

وفى هذا الموقف العصيب يقال له: ﴿ **لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد** ﴾ .. قوى لا يحجبه حجاب ، وهذا هو الموعد الذى غفلت عنه ، وهذا هو الموقف الذى لم تحسب حسابه ، وهذه هى النهاية التى كنت لا تتوقعها ، فالآن فانظر ، فبصرك اليوم حديدة ! .

هنا يتقدم قرينة ، والأرجح أنه الشهيد الذى يحمل سِجِلَّ حياته : ﴿ **وقال قرينه هذا ما لدىّ عتيد** ﴾ .. حاضر مهيأ معد ، لا يحتاج إلى تهيئة أو إعداد ! .

ولا يذكر السياق شيئاً عن مراجعة هذا السجل تعجيلاً بتوقيع الحكم وتنفيذه ، إنما يذكر مباشرة النطق العلوى الكريم ، للملكين الحافظين : السائق والشهيد : ﴿ **ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد * مناع للخير معتد مريب *الذى جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه فى العذاب الشديد** ﴾ .. وذكر هذه النعوت يزيد فى حرج الموقف وشدته ، فهو دلالة غضب الجبار القهار فى الموقف العصيب الرهيب ، وهى نعوت قبيحة مستحقة لتشديد العقوبة : كفار . عنيد ، مناع للخير ، معتد ، مريب ، الذى جعل مع الله إلهاً آخر . وتنتهى بتوكيد الأمر الذى لا يحتاج إلى توكيد : ﴿ **فألقياه فى العذاب الشديد** ﴾ بياناً لمكانه من جهنم التى بدأ الأمر بإلقائه فيها .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ٣٢٦/١ و ٣٧٤/٤ ، و «الترمذى » (٢٤٣/١) و «مجمع الزوائد» ١٣١/٧ و ٣٣٠/١٠ و ٣٣١ ، والطبرانى فى «الكبير» ٢٢٢/٥ و ١٢٨/١٢ و «شرح السنة» ١٠٣/١٥ ، والطبرانى فى «الصغير» ٢٤/١ ، و «الكنز» (٣٨٩٠٦) و (٣٩٧٤٣) ، وابن أبى شيبة ٣٥٢/١٠ ، وابن المبارك فى «الزهد» (٥٥٧) ، و «المغنى عن حمل الأسفار» ٤٩٦/٤ ، و «البداية» ٤٥/١ ، و «الحلية» ١٨٩/٣ و ١٠٥/٥ ، وابن عدى ٨٩١/٣ ، و «الكنى والأسماء » ٥٠/٢ ، والحاكم ٥٥٩/٤ و «فى ظلال القرآن» ٣٣٦٤/٦ .

عندئذ يفزع قرينه ويرتجف ، ويبادر إلى إبعاد ظل التهمة عن نفسه ، بما أنه كان مصاحباً له وقريناً : ﴿ **قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد** ﴾ .. وربما كان القرين هنا غير القرين الأول الذى قدم السجلات ، ربما كان هو الشيطان الموكل به ليغويه ، وهو يتبرأ من إطغائه ، ويقرر أنه وجده ضالاً من عند نفسه ، فاستمع لغوايته ! وفى القرآن مشاهد مشابهه يتبرأ فيها القرين الشيطانى من القرين الإنسانى على هذا النحو ، على أن الفرض الأول غير مستبعد . فقد يكون القرين هو الملك صاحب السِّجِلّ ، ولكن هول الموقف يجعله يبادر إلى التبرؤ وهو برىء ليبين أنه مع صحبته لهذا الشقى فإنه لم تكن له يد فى أى مما كان منه ، وتبرؤ البرىء أدل على الهول المزلزل والكرب المخيف .

هنا يجىء القول الفصل ، فينهى كل قول : ﴿ **قال لا تختصموا لدىّ وقد قدمت إليكم بالوعيد * ما يبدل القول لدىّ وما أنا بظلام للعبيد** ﴾ .. فالمقام ليس مقام اختصام ، وقد سبق الوعيد محدداً جزاء كل عمل ، وكل شىء مسجل لا يبدل ، ولا يجزى أحد إلا بما هو مُسَجَّل ، ولا يظلم أحد ، فالمجازى هو الحكم العدل .

طبيعة الطغيان تجمع بين الغابرين واللاحقين

قال تعالى :

﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[1]..

فهى جبلة واحدة وطبيعة واحدة للمكذبين ، وهو استقبال واحد للحق وللرسل يستقبلهم به المنحرفون :

﴿ **كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون** ﴾ ..

(١) الذاريات : ٥٢ – ٥٥ .

كما يقول هؤلاء المشركون ! كأنما تواصوا بهذا الاستقبال على مدار القرون ! وما تواصوا بشيء إنما هي طبيعة الطغيان وتجاوز الحق والقصد تجمع بين الغابرين واللاحقين ! .

وإليك ما قاله بعض هذه الأقوام لرسلهم :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾[1]..

وقال تعالى : ﴿ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾[2]..

---

(١) الشعراء : ٢٣ – ٣٥ . (٢) الذاريات : ٣٨ – ٣٩ .

وقال تعالى :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾[1] ..

والنتيجة الطبيعية التى تترتب على هذا الموقف المكرور ، الذى كأنما تواصى به الطاغون على مدار القرون ، ألا يحفل الرسول (ﷺ) تكذيب المشركين ، فهو غير ملوم على ضلالهم ، ولا مُقَصِّر فى هدياتهم : ﴿ **فتول عنهم فما أنت بملوم** ﴾ .. إنما هو مذكر ، فعليه أن يذكر ، وأن يمضى فى التذكير ، مهما أعرض المعرضون وكذب المكذبون : ﴿ **وذَكِّرْ فإن الذكرى تنفع المؤمنين** ﴾ .. ولا تنفع غيرهم من الجاحدين والتذكير هو وظيفة الرسل ..

من عرف الحق ولم يعترف به فهو طاغ ظالم

قال تعالى :

﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾[2] ..

« فذكر » .. والخطاب للرسول (ﷺ) ليظل فى تذكيره لا يثنيه سوء أدبهم معه ، وسوء اتهامهم له ، وقد كانوا يقولون عنه مرة : إنه كاهن ، ويقولون عنه مرة : إنه مجنون ، ويجمع بين الوصفين عندهم ما كان شائعاً بينهم أن الكهان يتلقون عن الشياطين ، وأن الشيطان كذلك يتخبط بعض الناس ، فيصابون بالجنون ، فالشيطان هو العامل المشترك بين الوصفين : كاهن أو مجنون ! وكان يحملهم على وصف النبى (ﷺ) بهذا الوصف أو ذاك ،

---

(1) القمر : ٩ .

(2) الطور : ٢٩ - ٣٢ .

أو بقولهم إنه شاعر أو ساحر ، كان يحملهم على هذا كله موقفهم مبهوتين أمام القرآن لكريم المعجز الذى يبدههم بما لم يعدهوا من القول ، وهم أهل القول ! ولما كانوا لا يريدون لعلة فى نفوسهم أن يعترفوا أنه من عند الله . فقد احتاجوا أن يعللوا مصدره المتفوق على البشر . فقالا : إنه من إيحاء الجن أو بمساعدتهم ، فصاحبه إما كاهن يتلقى من الجن ، أو ساحر يستعين بهم ، أو شاعر له رئيٌّ من الجن ، أو مجنون به مُسٌّ من الشيطان يُنطقه بهذا القول العجيب ! .

وإنها لقولة فظيعة شنيعة ، فالله سبحانه يسلى رسوله عنها ، ويصغر من شأنها فى نفسه ، وهو يشهد له أنه محوط بنعمة ربه ، التى لا تكون معها كهانة ولا جنون : ﴿ **فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون** ﴾ ..

ثم يستنكر قولهم : إنه شاعر : ﴿ **أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون** ﴾ .. وقد قالوها ، وقال بعضهم لبعض : اصبروا عليه ، واثبتوا على ما أنتم فيه ، حتى يأتيه الموت ، فيريحنا منه ! وتواصوا أن يتربصوا به الموت المريح ، ومن ثم يلقن الرسول (ﷺ) أن يرد عليهم فى تهديد ملفوف : ﴿ **قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين** ﴾ .. وستعلمون من تكون له العاقبة ، ومن ينتهى به التربص إلى النصر والظهور .

ولقد كان شيوخ قريش يُلَقَّبُون بذوى الحلوم ، أو ذوى الأحلام ، إشارة إلى رجاحة عقولهم وحكمتهم فى تصريف الأمور ، فهو يتهكم بهم وبأحلامهم تجاه الإسلام ، وموقفهم منه ينافى الحكمة والعقل ، فيسأل فى تهكم : أهذه الأوصاف التى يصفون بها محمداً وتلك المواقف التى يقفونها من رسالته كانت من وحى أحلامهم ؟ أم أنهم طغاة ظالمون لا يقفون عند ما تمليه الأحلام والعقول :

﴿ **أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون** ﴾ ..

ما يقوله الطغاة لأتباعهم يوم القيامة

قال تعالى :

﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ

ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[1] ..

احشروا الذين ظلموا ومن هم على شاكلتهم من المذنبين ، فهم أزواج متشاكلون .. وفى الأمر .. على ما فيه من لهجة جازمة تهكم واضح فى قوله : ﴿ **فاهدوهم إلى صراط الجحيم** ﴾ .. فما أعجبها من هداية خير منها الضلال ، وإنها لهى الرد المكافىء لما كان منهم من ضلال عن الهدى القويم ، وإذا لم يهتدوا فى الدنيا إلى الصراط المستقيم ، فليهتدوا اليوم إلى صراط الجحيم ! .

وهاهم أولاء قد هدوا .. هدوا إلى صراط الجحيم . ووقفوا على استعداد للسؤال . وهاهو ذا الخطاب يوجه إليهم بالتقريع فى صورة سؤال برىء ! .

﴿ **مالكم لا تناصرون** ﴾ ..

مالكم لا ينصر بعضكم بعضا ، وأنتم هنا جميعا ؟ وكلكم فى حاجة إلى الناصر المعين ؟ ومعكم آلهتكم التى كنتم تعبدون ! .

ولا جواب بطبيعة الحال ولا كلام ! إنما يرد التعليق والتعقيب :

﴿ **بل هم اليوم مستسلمون** ﴾ ..

عابدين ومعبودين !! ..

---

(١) الصافات : ٢٢ - ٣٤ .

ثم يعود السياق مرة أخرى إلى الحكاية ، ويعرض مشهدهم يجادل بعضهم بعضاً :

﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ﴾ ..

إى كنتم توسوسون لنا عن يمينا كما هو المعتاد فى حالة الوسوسة بالأسرار غالباً فأنتم مسئولون عما نحن فيه . وعندئذ ينبرى المتهمون لتسفيه هذا الاتهام ، وإلقاء التبعة على موجهيه :

﴿ قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ﴾ ..

فلم تكن وسوستنا هى التى أغوتكم بعد إيمان ، وأضلتكم بعد هدى .

﴿ وما كان لنا عليكم من سلطان ﴾ ..

نرغمكم به على قبول ما نراه ، ونضطركم إليه اضطراراً لا ترغبون فيه .

﴿ بل كنتم قوماً طاغين ﴾ ..

متجاوزين للحق ، ظالمين لا تقفون عند حد .

﴿ فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون ﴾ ..

فاستحققنا نحن وأنتم العذاب ، وحق علينا الوعيد بأن نذوق العذاب .

وقد انزلقتم معنا بسبب إستعدادكم للغواية ، وما فعلنا بكم إلا أنكم اتبعتمونا فى غوايتنا :

﴿ فأغويناكم إنا كنا غاوين ﴾ ..

وهنا يرد تعليق آخر ، وكأنه حكم يعلن على رءوس الأشهاد ، يحمل أسبابه ، ويعرض ما كان منهم فى الدنيا مما حقق قول الله عليهم فى الآخرة :

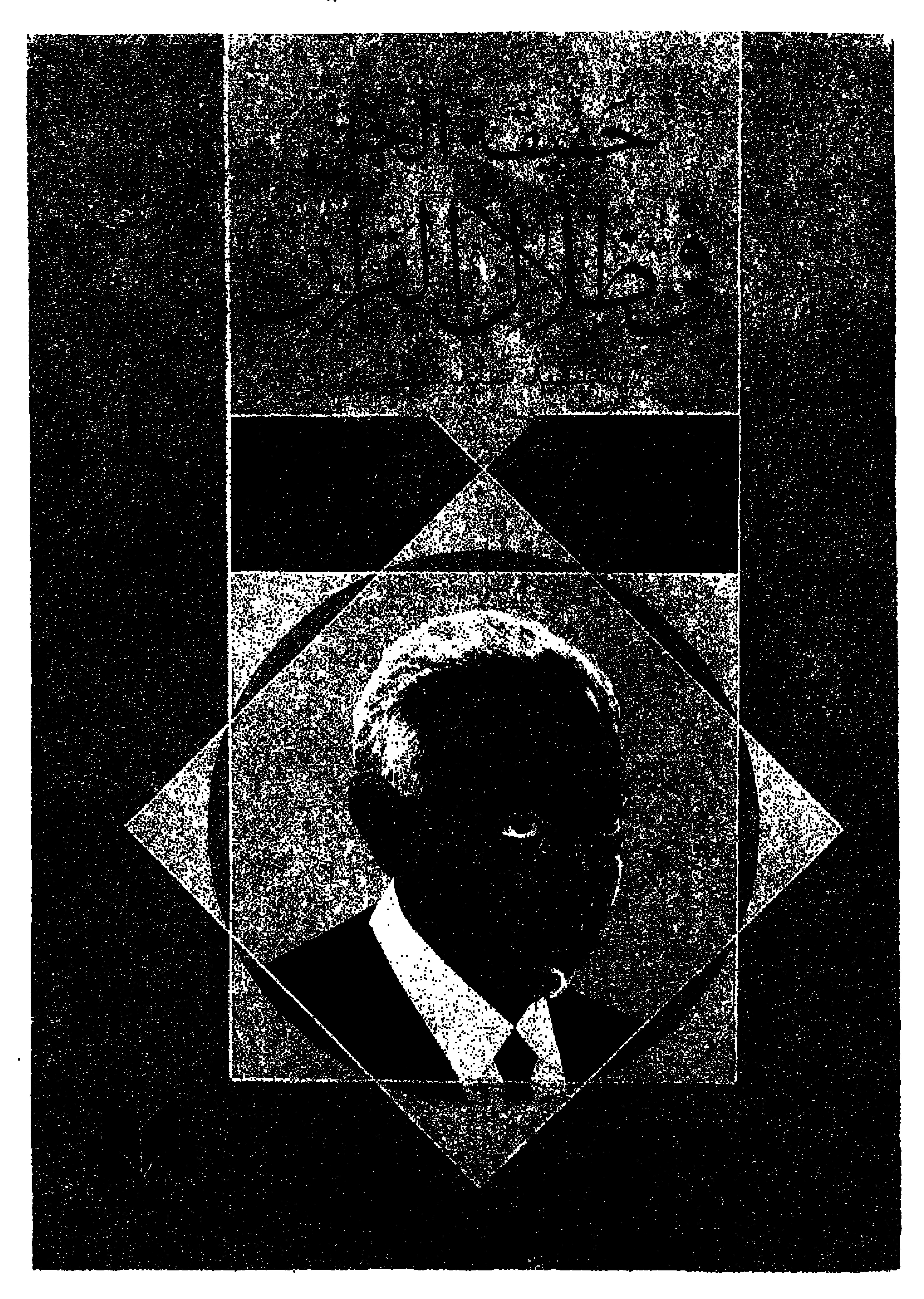
﴿ فإنهم يومئذ فى العذاب مشتركون * إنا كذلك نفعل بالمجرمين ﴾ ..

فهرس الكتاب

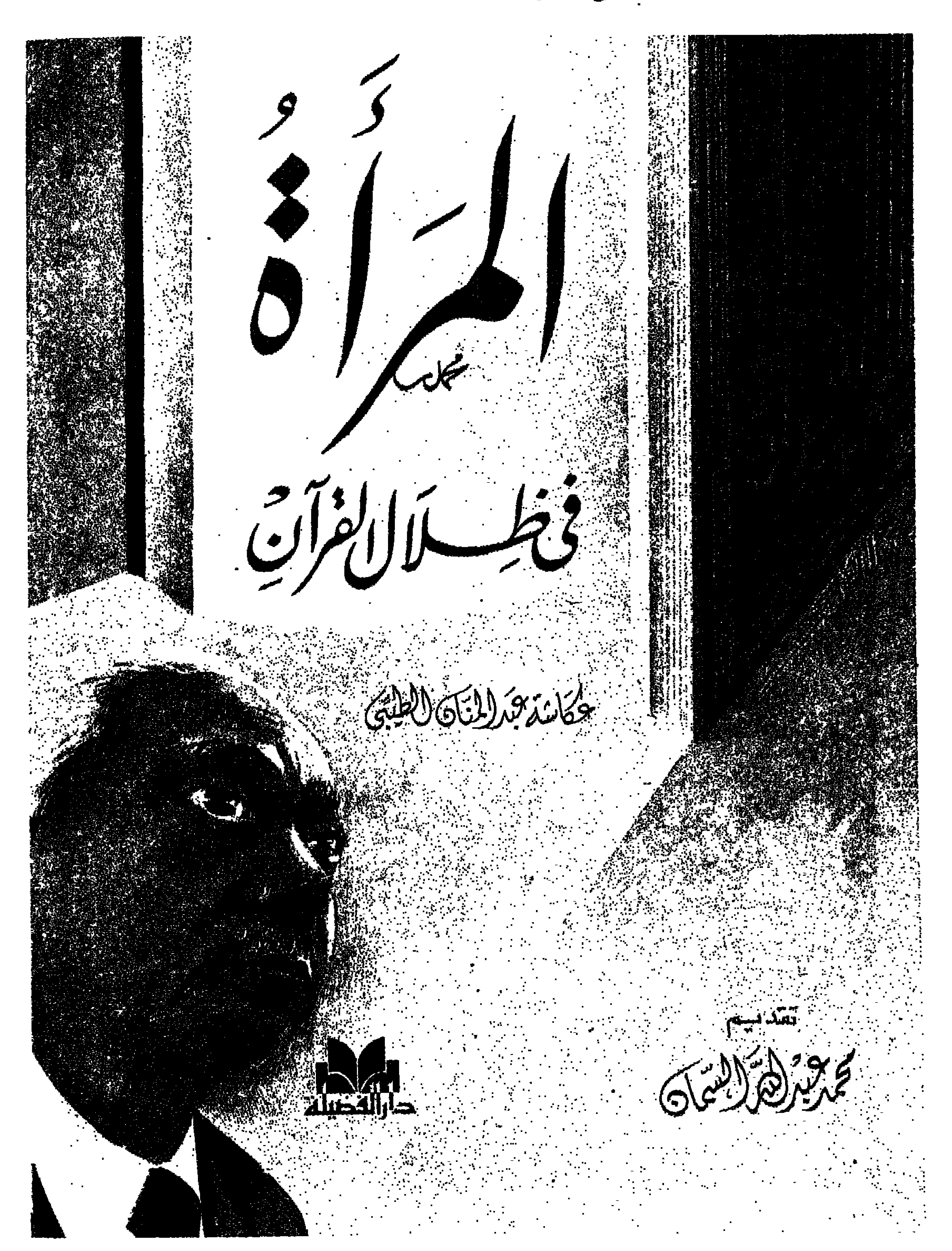
الموضوع	الصفحة

* * *

من منشورات دار الفضيلة

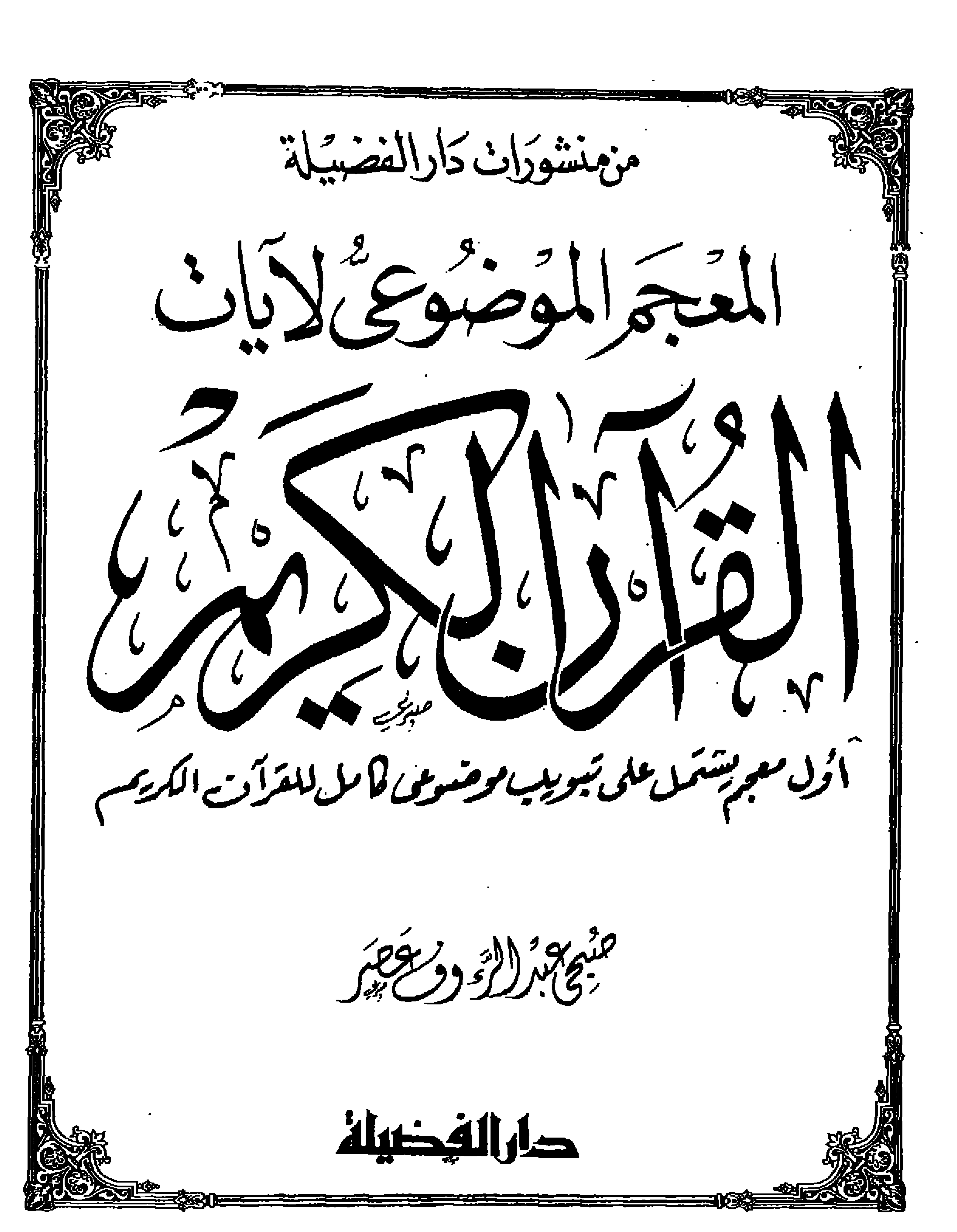


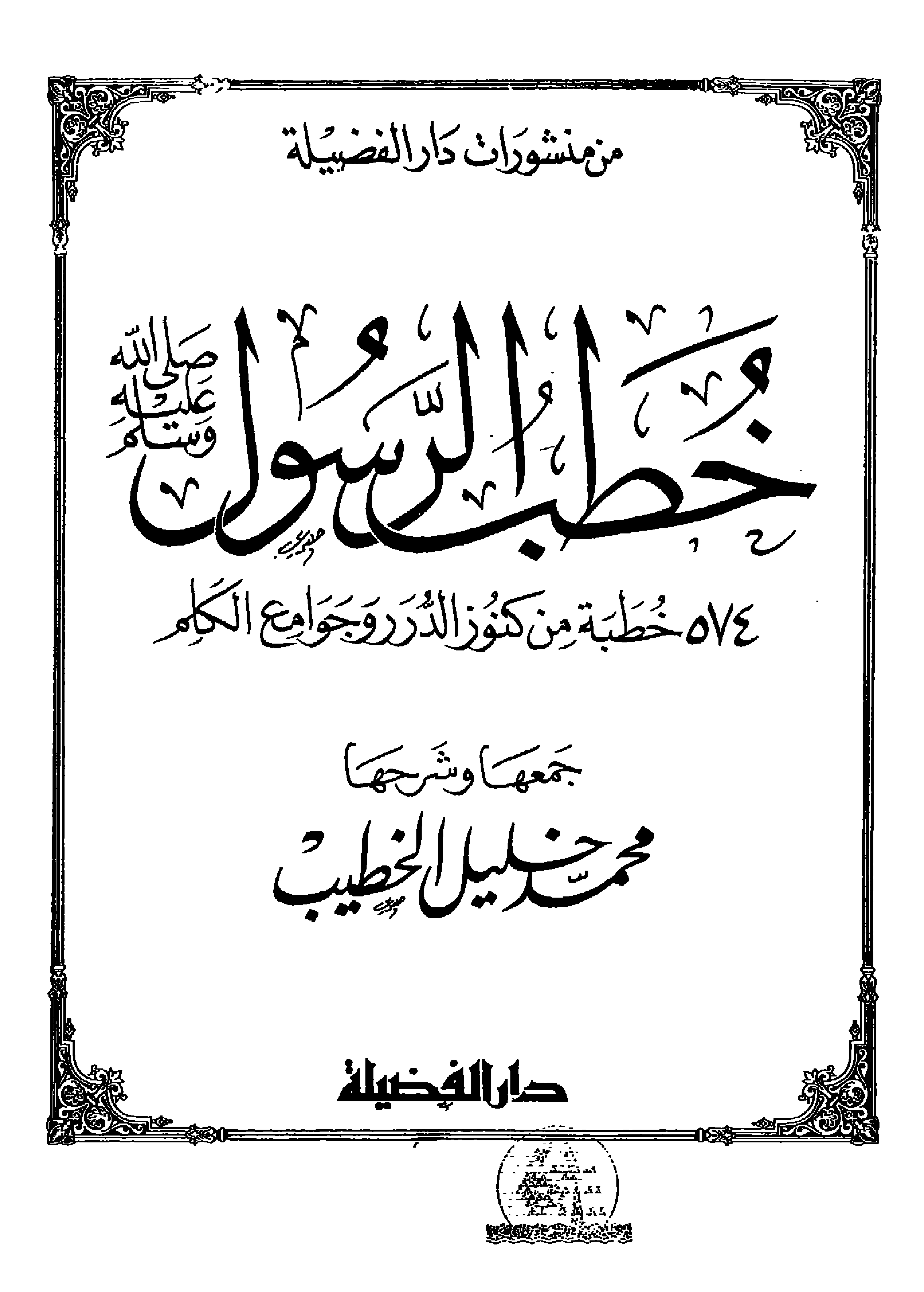
من منشورات دار الفضيلة



من منشورات دار الفضيلة




من منشورات دار الفضيلة
المعجم الموضوعي لآيات
القرآن الكريم
أول معجم يشتمل على تبويب موضوعي كامل للقرآن الكريم
صبحي عبد الرؤوف عصر
دار الفضيلة



من منشورات دار الفضيلة

خطب الرسول ﷺ

٥٧٤ خطبة من كنوز الدرر وجوامع الكلم

جمعها وشرحها

محمد خليل الخطيب

دار الفضيلة

رقم الإيداع بدار الكتب: ٣١٠٧/١٩٩٣

الترقيم الدولى ١ - ٣١ - ٥١٤١ - ٩٧٧

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطى شبرا القاهرة
الرقم البريدى ـــ ١١٢٣١

● في هذا الكتـــاب ●

- من هو الطاغـوت ؟!
- خشية الطغاة من يقظة الشعوب .
- الطاغوت الباطل لا يطيقُ وجود الحق .
- منطق الطغاة عندما يواجهون الحق .
- سـبب طغيـان الطـاغى .
- الهوى هو الدافع القوى لكل طغيان .
- صورة من صـور الطغيان .
- حوار بين الطغاة وأتباعهم .
- عدل الله فى أخذ الطغاة .
- مصـير الطغـــاة .
- أثر الطغيان فى الأرض .
- الطغاة الذين يعذبون النّاس سيفعل بهم كذلك يوم القيامة .
- المنافقون هُمُ الذين يتحاكمون إلى الطاغوت .
- سبيل الله وسبيل الطاغوت .
- تكاليف العبودية للطاغوت .
- الطغاة لا يزيدهم التذكير إلا طغياناً .
- ما يقوله الطغاة لأتباعهم يوم القيامة .



375 قرشا